وغابت الشمس ولم يظهر القمر

إحسان عبد القدوس

مكتبة غريب

قد تقف المعـارك بين الأعداء ..

ولكنها لا تقف أبـدا بين الحلفاء ..

احسان

(١)

جلس رفعت البيومى على مقعد وثير فى شقته الرائعة بالعمارة الفخمة المطلة على النيل فى انتظار أن يقدموا له الشاى .. شاى الساعة الخامسة .. إنه منذ سنوات طويله تعود على شاى الساعة الخامسة حتى أصبح يربط كل مواعيد عمله بشاى الساعة الخامسة .. إن بريطانيا أقامت كل مجدها وكل عظمتها وكل تقدمها الفكرى على أساس تقديس تناول شاى الساعة الخامسة .. لاشك أن تناول الشاى وفى هذا الموعد بالذات ينشط العبقرية ويهبها موهبة البحث عن العظمة .. ولو أنه بدأ طريق العظمة من قبل أن يتعود على شاى الساعة الخامسة ..

وابتسم رفعت البيومى ابتسامة صغيره ترسم صورة عظمته وهو ينظر إلى الخادم يدخل إليه حاملا معدات الشاى .. إنه ليس خادما..

إنه رجل مهيب محترم يلبس بدلة كاملة رسميه فوق قميص أبيض منشى ومعه رباط عنق أسود معلق حول عنقه .. إنه « بتلر » كما يسميه الانجليز وليس فى اللغة العربيه كلمة تعبر عن صفة البتلر لأن العرب لم يعرفوا فى كل تاريخهم نظام البتلرات .. إنه الرجل الذى يعتبر مسئولا عن خدمة اللورد الانجليزى .. أو خدمة أصحاب السيادة على الشعب الانجليزى .. وهو قد وصل فى عظمته الى مرتبة اللورد .. بل إن أصدقائه الانجليز عندما يأتون لزيارته يذهلون بكل التقاليد وإجراءات الخدمه التى وضعها داخل بيته .. ويذهلون أكثر وهم يطوفون بعيونهم على قطع الأثاث والتحف المنثورة واللوحات المعلقه .. إنه بيت أفخم وأروع من بيت أى لورد إنجليزى. لقد دخل هو شخصيا بيوت كثير من اللوردات وتعمد أن يكون بيته أفخم من أى بيت دخله .. صحيح أنه تأثر بالذوق الانجليزى ولكنه لاشك قد ارتقى حتى بالذوق الانجليزى ..

وانحنى « البتلر » يرتب أمامه معدات الشاى ثم صب له فى الفنجان وانحنى انحناءة كبيرة وانسحب متقهقرا بظهره من أمامه والبيومى يودعه هامسا كأنه لا يهمه أن يسمعه :

— متشكر يا جلال ..

ورفع فنجان الشاى إلى شفتيه ثم مد أصابعه إلى العلبة الخشبية التى أمامه وكأنها تحفة وأخرج سيجارا طويلا .. إنه سيجار هافانا

ماركة منت كريستو .. إن ثمن هذا السيجار فى مصر الآن خمسة جنيهات .. السيجار الواحد بخمسة جنيهات .. من كان يصدق أنه سيصل إلى اليوم الذى يستطيع فيه أن يحرق خمسة جنيهات بين أصابعه وينفثها دخانا .. ولكنه لم يبدأ بتدخين السيجار .. لقد بدأ أولا بتدخين « البايب » .. كان البايب هو الذى يرمز إلى الشخصية الانجليزيه وعظمتها التى يطمع فى الوصول اليها .. ولكنه لم يتحمل تدخين البايب طويلا فانتقل الى تدخين السيجار .. وكان قد اكتشف أنه حتى اللوردات الانجليز يدخنون السيجار فى المجتمعات العامة إظهارا لعظمتهم وأرستقراطيتهم .. إن « البايب » بالنسبة لهم تدخين شعبى أما السيجار فهو خاص بأفواه العظماء .. وهو قد وصل منذ زمن بعيد إلى مرتبة العظماء ..

وعاد بين رشفات الشاى ودخان السيجار يتذكر المعركة الجديدة التى يخوضها .. ويبتسم ساخرا .. إن حياته كلها معارك منذ أن كان لاشىء .. منذ أن كان صبيا مجهولا غلبانا ابن المزارع المتواضع عباس أحمد عباس البيومى .. لقد اختصر اسمه بعد أن بدأ يعتمد على نفسه .. وأصبح رفعت البيومى فقط .. وقد أثبت منذ صباه أن قيمة الإنسان لاتقاس بأصله وفصله ولكن تقاس بذكائه . الذكاء وحده .. ولذلك قد تجد أولاد عظماء يصبحون نكرات .. لاشىء .. لأنهم ليسوا أذكياء .. وأولاد من طبقة عادية ومن أهالى مجهولين يصبحون كل شىء ويصلون إلى القمه لأنهم أذكياء ..

والذكاء لايورث .. إن ماوصل إليه بذكائه لم يستطع أبوه أن يصل إليه .. لا .. لاشك أن بذور الذكاء تورث وإن كانت تختلف فى نسبة نضوج هذه البذور .. فقد كان أبوه فى حياته وفى عمله هو الذى أوحى إليه بالطريق الذى اختطه لنفسه ..

وعلت شفتيه الرفيعتين الواسعتين ابتسامة هادئة ورفع أصابعه يهرش فى شعر رأسه الأكرت وهى العادة التى لم يستطع أن يتخلص منها .. وعاش فى ذكرياته .. وهى عادته كلما خلا لنفسه .. يتذكر وهو فخور بما يتذكره .. ولكنها ذكريات لاتتردد إلا بينه وبين نفسه ، ولايسمح لأحد آخر أن يرددها معه أو يذكره بها، بل إنه يبدو كأنه ألغاها وحرمها على الناس وجعل كل فقرة منها كأنها سر الأسرار .. ولكنه يتمتع بها وحده كلما خلا لنفسه .. ويراجعها فخوراً بنفسه كأنه يستعرض فيلما سينمائيا يروى قصة حياته .. لا .. قصة ذكائه .. فحياته كلها تنحصر فى ذكائه ..

لقد ولد فى أوائل العشرينات .. أى منذ أكثر من ستين عاما .. وولد فى قرية كفر البطيخ .. وكان والده يملك خمسة أفدنة هناك ويزرعها بالبطيخ فعلا .. ولاشك أن والده كان مزارعا فالحا استطاع أن يكسب من زراعة البطيخ حتى أنه انتقل بالعائلة فى منتصف الثلاثينات إلى القاهرة لكى يوفر لأولاده دخول المدارس الابتدائية ويوفر لنفسه احتياجات لاتتوفر له فى كفر البطيخ .. واستأجر بيتا فقيرا فى إحدى حوارى الدراسة .. وألحق ابنه رفعت

فى مدرسة السلحدار الابتدائية .. إن رفعت له خمسة إخوة .. ولدين وثلاث بنات .. ولكن كل إخوته ليس لهم أثر فى حياته .. إنهم حتى الآن يعيشون على مايمدهم به بفضل غناه ونفوذه .. هو وحده الذى ينفرد ويمتاز عنهم بكل ما وصل إليه .. إن بذور الذكاء لم تنضج فى عقولهم كما نضجت فى عقله ..

وقد بدأ وعى رفعت يتفتح منذ وصل إلى القاهرة .. إن القاهرة شىء آخر غير كفر البطيخ .. كل هذا ليس فى كفر البطيخ .. ودفعه طموحه وهو لايزال فى صباه إلى أن يخرج بنفسه من حى الدراسة .. ويحاول أن يكتشف القاهرة .. إنه عالم كبير .. كبير .. كيف يعيش فى هذا العالم معتمدا على مسئولية أبيه عنه وبما ينفقه عليه حتى لو كان أبوه يعتبر من أغنياء كفر البطيخ أو على الأقل من المستورين الذين استطاعوا أن ينتقلوا بعائلاتهم إلى القاهرة. إلى الحى الفقير من القاهرة .. وبما كان الطريق الوحيد أمامه هو أن يستمر فى دراسته إلى أن يصبح شيئا غير أبيه .. مهندسا .. طبيبا .. ضابطا من ضباط الجيش .. إنه يومها يستطيع أن يصل إلى أرقى مما وصل به إليه أبوه .. وسيكون مهندسا .. لا .. طبيبا .. لا .. ضابطا .. ولكن متى يمكن أن يحقق ذلك من خلال دراسته فى المدارس وبعدأن يحقق حلم العائلة كلها بأن يدخل أحد أفرادها إلى الجامعة :. لن يصل إلا بعد عشر سنوات .. أكثر .. وربما خمسة

عشر عاما .. وحتى بعد خمسة عشر عاما هل يمكن أن يكون شيئا .. من يدرى .. لعله لن يصل أبدا ..

وهو فى الوقت نفسه يحب أباه ويقدره ويحاول دائما أن يكتشف كيف يعمل و كيف يكافح لزراعة البطيخ حتى استطاع أن ينتقل بهم إلى القاهرة .. وقد اكتشف أن أباه لاشك يعتبر خبيرا فى زراعة البطيخ .. حتى أنه لو كان فى بلد متقدم لاستعين به لزراعة بطيخ مصر كلها .. لم يكتشف ذلك وهو صغير ولكنه كلام كان يقوله لنفسه بعد أن كبر .. ولكنه اكتشف أيضاً أن البطيخ يشغل كل حياة والده .. إنه يبذر البذور ثم يترك عددا من الفلاحين ينفذون أوامره ومعظم نشاطه يبذله بعيدا عن الحقل .. إنه صديق العمدة حتى لايكاد يفارقه .. وهو أيضا صديق لمأمور المركز .. حتى أنه أسماه رفعت تيمنا باسم مأمور المركز فى فترة ولادته .. بل إنه عرف أن والده وصل إلى المديرية وقابل المحافظ أكثر من مرة .. وكان والده يتفاخر بصداقته لكل هؤلاء .. صداقة الحكومة .. وربما كانت قيمته بين كل أهل البلد يستمدها من هذه الصداقات .. وكان رفعت منذ طفولته وهو جرىء فى تبادل الحديث مع أبيه .. وكان أبوه يميل اليه أكثر من إخوته فرحا بجرأته وبأنه دونهم لايكف عن الكلام .. ويستطيع أن يتحدث طويلا إذا قرر الكلام ويصمت طويلا إذا قرر الصمت .. وكان أبوه يتحدث مزهوا عن زيارته للمديرية عندما سأله رفعت :

— والبطيخ يا أبى ؟!

وقال أبوه ضاحكا :

— البطيخ يابنى لايعطى الخير الا إذا كان مستندا على ظهر الحكومة .. الأرض ليس لها قوة الا قوة الحكومة ..

وتعلم رفعت أن أباه لايكسب من زراعة البطيخ الا مستندا على صداقة الحكام .. بل إنه عرف فيما بعد أن الخمسة أفدنة التى يملكها أبوه كانت ثلاثة فقط واستطاع بصداقاته أن يضم اليها فدانين مما أثار عليه أهل البلد ولكنها ثورة لم تنزع شبرا واحدا من الفدانين وما لبثت أن خمدت .. وقد اكتشف رفعت أن أهل البلد لايحبون أباه وان كانوا يخافونه ولايملكون الا التظاهر باحترامه .. حتى أصدقاؤه من العيال الصغار فى البلده كانوا أحيانا كثيرة يتجمعون فى لهوهم ضده ثم لايلبثون أن يهربوا منه وكأنه ابن العمدة ..

ولكن صداقات أبيه للحكومة فى كفر البطيخ لاتساوى شيئا فى القاهرة.. لا أحد يحس به هنا .. لافى الحارة ولا فى المدرسة .. إن معه فى المدرسة طالبا يقولون أنه ابن رئيس الديوان الملكى .. ان مدرسة السلحدار رغم أنها مقامة فى حى شعبى الا أنه كان من المعروف عنها أنها مدرسة حاسمة لذلك كان بعض العظماء يرسلون اليها ابناءهم .. وحضرة الناظر يسأل عن ابن ناظر الخاصة ويستدعيه إلى مكتبه كل يوم .. وكل المدرسين يحادثونه فى رقة وتدليل رغم

ما كان معروفا من غلظه وقسوة فى ضرب التلاميذ .. لم تمتد يد أبدا على ابن ناظر الخاصة .. حتى الطلبة كانوا ينظرون اليه من بعيد كأنه من عالم محرم عليهم ، ويطيرون بالسعادة إذا أقدم مرة ليلعب معهم فى حوش المدرسة .. وان كانوا من ورائه يسخرون منه ويطلقون عليه شتائمهم .. وكان معه طالب آخر قيل أنه ابن وزير .. إنه يلاقى نفس الرعايه والحب من حضرة الناظر والمدرسين وإن كان هذاالطالب أقل تكبرا من ابن رئيس الديوان ، والناظر والمدرسين أقل تدليلا له .. وهو .. رفعت .. إنه لايساوى شيئا ولا أبوه يساوى شيئا .. ويجب أن يكون شيئا أكبر من ابن ناظر الخاصه وابن الوزير .. مهما يحاول أن يفعل كأبيه ويصادقهما باعتبارهما من أبناء السلطه .. أبناء الحكومة .. بل كان يكرهما ويحقد عليهما وتدفعه أحلامه لأن يكون أهم منهما وأعظم ..

ودفعته أحلامه وهو لايزال فى المدرسة الابتدائية إلى إدمان قراءة الصحف .. وكان يجد دائما طريقاً للحصول عليها .. وكان يقرأ كأنه يبحث عن شيء .. يبحث عن القوة التى يستطيع أن يستند عليها حتى يصل إلى أكثر مما وصل اليه أبوه باستناده على قوة الحكومة .. وكان فى الوقت نفسه قد استطاع التقرب من شبان حى الدراسة الأكبر منه وكان يجلس بجانبهم يستمع إلى أحاديثهم السياسية وإلى أسرار التنظيمات التى يعدونها للقيام بمظاهرات ضد الإنجليز ..

وعقله لايكف عن التفكير فى البحث عن الطريق الذى يؤدى به إلى الاستناد على القوة .. إنه ليس مقتنعا بالاستناد على قوة الحكومة .. ان الاستناد على قوة العمدة والمأمور والمحافظ يكفى إذا كان يقيم فى كفر البطيخ .. ولكن الاعتماد على الحكومة وهو فى القاهرة صعب .. لايمكن أن تكون له قيمه بالنسبة للحكومة الا إذا كان من أبناء الحكام .. حتى الاعتماد على القصر الملكى .. لايمكن أن يحقق له طريقا سهلا .. وهو لايدرى كيف يصل إلى القصر .. ولكن ما هى القوة الحقيقية فى مصر .. ما هى القوة التى تحكم ويستطيع أن يحكم معها إذا وصل اليها .. إنها قوة الانجليز .. أن كل الناس تكره الإنجليز ويثورون ضدهم .. ولكن ربما كان هذا يجعل الطريق سهلا أمامه للتقرب اليهم والاعتماد على قوتهم إذا استطاع أن يكسب ثقتهم ..

وظل هذا الرأى يتمكن منه دون أن يفصح عنه لأحد ولاحتى لأبيه ، بل إنه كان يتعمد أن يدارى هذا الرأى بأن يتقرب أكثر إلى شبان حى الدراسة الثوار ، واستطاع معهم أن يتقرب إلى عدد كبير من تنظيمات الثوار بل إنه ذهب إلى بيت الأمة بين المتظاهرين.

إلى أن حصل على الشهادة الابتدائية ..

إنه لايريد أن يكمل التعليم العادى .. لايريد أن يدخل المدرسة الثانوية .. ولا الجامعة بعد عمر طويل .. لقد قرر أن هذا الطريق

لن يؤدى به إلى شىء من أحلامه .. ولا يستطيع أن ينتظر عشر سنوات أو خمس عشرة سنة حتى يصل أو لا يصل .. وحتى وصول فلن يكون أكثر من موظف بين مئات الموظفين وإن كان سيعتبر موظفا محترما ..

وكان أبوه حائرا فيه بعد أن نال الابتدائية .. هل يسعى لتعيينه موظفا فى المديرية .. لا شك أن المحافظ لن يخيب أمله وسيعين ابنه .. وهو بذلك سيصبح نسيبا للحكومة وله ابن فيها .. ولكن أحاسيس الأب تجعله يقبل أن يتحمل عبء ابنه أكثر وينفق عليه حتى يتم تعليمه الثانوى .. إنه يستطيع بشهادة البكالوريا أن يضعه فى وظيفة أكبر .. ولكنه فوجىء بابنه رفعت يرفض الالتحاق بمدرسة ثانوية ويقول أنه سيلتحق بالمعهد البريطانى ليتعلم اللغة الانجليزيه ..

وصاح الأب فى دهشة :

– ماذا تفعل باللغة الإنجليزيه يا ابنى ؟

وقال رفعت فى إصرار :

– إن اللغة الانجليزيه تفعل كل شىء .. لو زرعنا البطيخ باللغة الانجليزيه لكنا الآن سادة البلد ..

وانطلق رفعت يتكلم طويلا كعادته عندما تدفعه مصلحة إلى الكلام .. إلى أن أقتنع أبوه بأن يتركه يلتحق بالمعهد البريطانى .. الواقع أنه لم يقتنع فانه لم يفهم سر إصرار ابنه على الالتحاق بهذا

المعهد .. ولكنه استسلم إزاء هذا الاصرار .. وربما اذا لم يكن الأب قد استسلم لوجد رفعت طريقا للالتحاق بالمعهد حتى لو اضطر أن يهرب من العائلة .. إلى هذا الحد كان مصرا ..

والتحق رفعت بالمعهد البريطانى وكان نهما فى استيعاب اللغة الانجليزية حتى بدا كأنه طالب عبقرى بين طلبة المعهد .. وقدره المدرسون الانجليز وأولوه اهتمامهم .. وكان هو من الذكاء والنشاط وبموهبته فى الكلام الطويل واختيار ما يقول بحيث استطاع ان يحيل هذا الاهتمام إلى صداقة شخصية بينه وبين المدرسين وخصوصا مستر جولدمان .. لقد كان أكثرهم طيبة وبساطة وكان يبدو كأنه فى حالة سكر دائم .. إن رائحة الخمر تحيط به وتنطلق من بين شفتيه كأنها تعبق كل أنفاسه .. يتنفث خمرا .. وقد توطدت الصداقة بينه وبين جولدمان حتى أنه كان يصحبه معه بعد انتهاء الدراسه الى الخمارة القريبة من المعهد ويجلسه بجانبه وهو يتناول الخمر .. والغريب أن جولدمان لم يكن يدعو رفعت إلى تناول الخمر معه بل لم يدعه حتى إلى رشفه ماء .. إنه يضعه بجانبه يتبادل معه الحديث الطويل والنكات دون أن يكرمه بشىء .. لعل هذه هى عادة الانجليز .. على كل أن يعتمد على نفسه ويتحمل مسئولية إمتاع وإكرام نفسه .. وعلى كل فلم يكن رفعت يريد أن يذوق الخمر .. إنه يتأفف منها ربما بحكم البيئة التى نشأ فيها .. حتى بعد أن كبر وأصبح من الأثرياء لم يكن يحب الخمر إنما يضعها أمامه ويذوق رشفه أو رشفتين لمجرد مجاراة المظاهر الاجتماعية للطبقة الراقية ..

وكان كل ما يدور فى رأس رفعت هو كيف يستغل الصداقة التى اكتسبها مع مستر جولدمان وغيره من المدرسين الإنجليز للوصول إلى صداقة شخصيات انجليزية أكبر .. للوصول الى المجتمع الانجليزى الحاكم .. والشهور تمضى وهو لا يستطيع الوصول الى شىء .. ولكنه لا ييأس ..

وكانت ساعات الدراسة فى المعهد البريطانى قصيرة .. ساعتان أو ثلاثا .. وفى أيامه فراغ واسع كان يتعمد أن يقضيه مع شلل الشبان السياسين وأصبح كأنه واحد منهم مشترك بين كل تصرفاتهم السياسية ويطلع على كل أسرارهم .. لقد استطاع أن يكسب صداقة هؤلاء الشبان كما كسب صداقة الانجليز .. وهم يعلمون أنه طالب فى المعهد البريطانى .. إنه يتعلم الانجليزيه ليحارب الانجليز بلغتهم .. كانوا مطمئنين اليه ..

وفى يوم سمع عن اعداد وطنى عاجل .. سر من الأسرار .. واتخذ قرارا .. كان أول قرار يتخذه بالنسبة للمستقبل الواسع الذى عاش فيه بعد ذلك ..

وذهب إلى مكتب المستر جولدمان فى المعهد البريطانى وقال له فى بساطة :

ـ ماذا ستفعلون غدا ..

وقال جولدمان من خلال أنفاسه المخمورة :

ـ ماذا سيحدث غدا ؟

وقال وهو لا يزال مدعيا البساطة وسلامة النية وكأنه لايسعى الى شىء :

ـ ألا تعلم .. لقد عرف الشبان أن المفاوضات بدأت تفشل فى لندن وقرروا القيام بثورة عنيفة يهاجمون بها السفارة البريطانية بل كل ما هو بريطانى فى مصر ،بل قد يهاجمون هذا المعهد .. ألا تعلمون ؟.

وسأله جولدمان فى جزع :

ـ من أين عرفت ؟

وقال رفعت فورا :

ـ كل قادة الشباب أصدقائى ..

ونظر إليه جولدمان نظرة حائرة وقال :

ـ انتظر .. اجلس هنا ..

ثم رفع سماعة التليفون وسمعه رفعت وهو ينقل ما قاله له .. ثم أبعد سماعة التليفون عن أذنه وقال لرفعت :

ـ هل تستطيع أن تذهب للقاء أحد ؟

وقال رفعت دهشا :

ـ لقاء من؟

وقال جولدمان بسرعة :

– إنه صديق يهمه لقاؤك .. يريد أن يسمع منك ما قلته لى ..

وفكر رفعت بسرعة .. لاشك أنها شخصيه هامة التى تريد لقاءه .. شخصية أحد المسئولين .. إن هذا ما كان يطمع فيه .. وقال وهو يدارى حماسه :

– مستعد أن أذهب ..

وقال جولدمان فى التليفون :

– سيأتى اليك ..

ووضع سماعة التليفون وعاد يلتفت الى رفعت قائلا :

– إنه مستر مالكولوم .. وستقابله فى مكتبه بالسفارة .. ولا تدخل من الباب الرئيسى ولكن من الباب الجانبى .. وقدم هذه البطاقة وأنت تدخل ..

وأخرج من جيبه بطاقة شخصيه تحمل اسمه وكتب عليها كلمتين .. « للقاء مستر مالكولوم » .. ثم أعطاه لرفعت وهو يقول مبتسما :

– لا تتأخر .. أسرع ..

ورفعت بدأت تصيبه نوبة من الذهول .. كيف يدخل السفارة البريطانية .. لو رآه أحد من الشبان فلن يستطيع أن يجد تبريرا لدخوله .. وقد يقتلونه .. وهو فى نفس الوقت يستعين بكل أعصابه ليقاوم ذهوله .. ليجازف .. إن الحياة تبدأ بالمجازفه .. كل الذين

وصلوا الى ما يريدون بدأوا بالمجازفة .. لماذا يبدأ جبانا ويتصور أنهم سيرونه ويتهمونه ويقتلونه .. ليجازف ..

وذهب إلى السفاره البريطانيه سائرا على قدميه وهو يتلفت فى كل خطوة حرصا على ألا يفاجئه أحد ويتتبعه .. وعند السفاره سار على الرصيف المقابل حتى تأكد من أن أحدا لن يراه يدخل .. ودخل وكان تقديم بطاقة جولدمان كافيا ليقودوه مباشرة الى مكتب مالوكولم ..

واستقبله مالوكولم بنظرة ثاقبة جادة كأنه يحاول أن يصل بعينيه إلى داخل رأسه .. ثم ابتسم له ابتسامة كبيره .. وقال ضاحكا :

– ماذا قلت لجولدمان ... كان يحدثنى كأنه يرتعش ..

وأعاد عليه رفعت ما قاله لجولدمان .. ولكن مالوكولم أخذ يسأله .. ويسأله .. عشرات من الأسئلة .. ورفعت يتعمد أن يبدو هادئا ويجيب .. وقد كان يتمنى ألا يجيب على كل الأسئلة .. ولو أنه كان يحاول أن يثبت أنه لا يخفى شيئا عن الانجليز .. واكتفى بأن يجيب ببعض ما يعرفه لا بكل ما يعرفه ..

وطالت المقابلة أكثر من نصف ساعة أثبت رفعت لنفسه خلالها انه أصبح يجيد اللغة الانجليزية .. إنه يتكلم بها كأنها لغته .. وأخيرا قال مالوكولم :

– كان لدينا بعض المعلومات ولكن معلوماتك نورتنا أكثر .. وسألقاك بعد غد ..

وقال رفعت فورا وبكلمات مرتعشة :

– لا أستطيع أن أراك فى السفارة .. إن دخول السفارة يعرضنى لمخاطر لا أتحملها ..

وقال مالوكولم مبتسما :

– لقد التقيت بك هنا لأنى فوجئت بك ولأن الموضوع فرض لقاء فوريا ولكن فى المرة القادمة سنلتقى فى بيتى فى المعادى .. بعد غد الساعة السابعة .. واطمئن ..

وأعطاه مالوكولم بطاقته التى تحمل عنوان بيته وهو يودعه حتى باب مكتبه .. وخرج من السفارة كما دخل وهو يتطلع حوله خوفاً من أن يراه أحد .. وسار مبتعدا وقد بدأ يحس كأنه يلوم نفسه .. هل هذا هو الطريق الوحيد الذى يستطيع أن يصل به إلى أحلامه .. أن تصبح مهمته هى نقل الأخبار إلى الانجليز .. هل يرضى لنفسه أن يكون جاسوسا .. عميلا .. ولكن انه لم ينقل إلى الانجليز أسرارا إنها أخبار عامة يمكن إن ينشرها أى صحفى فى جريدته إذا علم بها .. أخبار الحركة الوطنية .. أنه ليس جاسوسا ولا عميلا انه مجرد صحفى ينشر الأخبار وكأنه اختار أن ينشر أخباره فى جريده انجليزيه .. لا .. لا .. لن يلوم نفسه ..

وعندما وصل الى البيت نقل عنوان مستر مالوكولم إلى ورقة ثم مزق البطاقة ودخل بها المطبخ وأحرقها.. هذا أضمن ..

وقد قامت المظاهرات فعلا فى اليوم التالى .. مظاهرات ضخمة عنيفة .. ولكن السفارة البريطانية كانت قد حصنت نفسها بفرق البوليس علاوة على فرق الجيش البريطانية فلم تصبها ولا طوبه .. وكل المؤسسات البريطانية كانت قد حصنت نفسها فلم يصبها شىء.. كل بريطانيا لم يصبها شىء من هذه المظاهرات .. كل ما أصيب هى ما تملكه مصر علاوة على من قتل وأصيب من الشبان المصريين .. ورفعت يتتبع الأخبار بلا مبالاة .. إن ما حدث هو ماحدث لكل مظاهره تقوم فى مصر .. حتى لو كان المتظاهرون قد استطاعوا أن يصلوا إلى السفارة والمؤسسات البريطانية فماذا كان يمكن أن يحدث.. كانت القضية الوطنية كلها تزداد انهيارا والاحتلال يزداد تمكنا وعنفا .. هذه هى آراؤه السياسية .. إنه يعتبر نفسه معتدلا حتى مع حرصه على صداقة المتطرفين ..

وفى اليوم التالى ذهب إلى لقاء مالوكولم .. وقد تعمد أن يحمل إليه بعض الأخبار الجديدة .. يريد أن يقنعه بقيمته الإخبارية .. واستقبله مالوكولم بترحاب وحاول أن يقدم له كأسا ولكن رفعت اعتذر فقدم له كوبا من الشاى البارد .. لم يكن يعلم أن الشاى يقدم باردا أيام الحر .. لقد أصبح فيما بعد من هواة الشاى البارد .. واعترف له مالوكولم بأن معلوماته كانت مهمة فى مواجهة المظاهرات ..

وبدأ يناقشه فى الأخبار الجديدة التى حملها إليه .. ثم بدأ ينظم معه طريقة العمل .. وأحس كأن بريطانيا أعلنت حاجتها واعتمادها عليه .. إنه يستطيع أن يتصل بمالوكولم كل يوم وفى أى ساعة .. ويستطيع أن يكتب المعلومات على ورقة يقدمها اليه اختصارا للوقت .. و .. و .. إنه وصل معه إلى أدق تفاصيل العمل.. وعندما وقف لينصرف مد اليه مالوكولم يده بورقة مالية وهو يقول ضاحكا :

– مجرد مصاريف انتقال ولا أريد أن أعتبرها أتعابا ..

ونظر رفعت إلى الورقة الماليه .. إنها عشرة جنيهات .. إنها ضعف ما يدفعه أبوه كمصاريف لهم كل شهر .. وقد كان الجنيه أيامها له قيمة تهز وترن .. ولكنه فكر بسرعة .. وذكاؤه يدور داخل رأسه كالدينامو .. لا .. لن يقبل .. حتى لو كانت العشرة جنيهات لها قيمة تصلح حاله فلن يقبلها .. وألح عليه مالوكولم ولكنه أصر على الرفض .. إلى أن سأله مالوكولم :

– ماذا تفعل بجانب دراستك فى المعهد ؟

وقال رفعت وكأنه متعال :

– لا شيء .. إنى أنتظر أن أنتهى من دراستى حتى أبحث عن عمل ..

وقال مالوكولم فى لهجة الرئيس المسئول :

– إن المعلومات السريعه التى جمعتها عنك تقول أنك لست غنيا ولا من عائلة غنية ..

وقال رفعت وهو يمثل دور المتعالى :

– هذا صحيح .. ولكنى أعمل معكم حبا فيكم لا لأنى فقير ..

وهز مالوكولم رأسه مبتسما كأنه يفهم :

– على كل حال .. سنرى ..

وخرج رفعت وهو حائر مع ذكائه .. لقد رفض العشرة جنيهات حتى يفرض على الإنجليز أن يقدرونه بثمن أكبر .. إنه ليس مجرد شحاذ يريد أن يأكل .. إنه صاحب مشروعات كبيرة وان كانت كلها لا تزال مجرد احلام .. فهل يصل مع الانجليز الى ما يريد .. على كل حال فهو لن يتركهم مهما كان ما يصل إليه معهم .. ومالوكولم يريده أن يكتب المعلومات التى يقدمها اختصارا للوقت .. هل يكتبها بخط يده .. إن كل ورقة منها تصبح وثيقه اتهام وإدانة له .. وكان يمكن أن يقدمها مكتوبة لو كتبها على الآلة الكاتبة حتى لا تكون وثيقة ضده .. ولكنه لا يكتب على الآلة الكاتبة .. وليس لديه آلة يملكها ويتخفى بها .. لماذا لايتعلم الآلة الكاتبه .. لماذا لا يشترى آلة؟ ولكن كيف .. من أين .. ن أباه لايمكن أن يدفع له مليما واحدا زيادة عما يدفعه ..

ومضت ثلاثة أيام وفوجىء بعدها بمستر جولدمان يستدعيه ويقول له من خلال ابتسامة واسعة تنفث رائحة الخمر :

– مضى أكثر من يوم وأنا أبحث عنك .. إنى أحمل لك مفاجأة.

وقال رفعت ضاحكا :

– كل مفاجآتك ضحكات ..

وقال جولدمان : :

– هذه المفاجأة ستجعلك أسعد مخلوق فى الدنيا .. لقد قرر المعهد اختيار أحد الطلبة للاشراف وترتيب أوراق الطلبة الآخرين وقد وقع الاختيار عليك .. هل تدرى كم تأخذ أتعابا لهذه المهمة .. ثلاثون جنيها فى الشهر .. تصور .. سيكون فى يدك ثلاثون جنيها كل شهر ..

واهتز رفعت من فرحته .. إن بطيخ كفر البطيخ لايمكن أن يدر على أبيه ثلاثين جنيها فى الشهر .. لقد استطاع فى أول خطوة أن يكون أغنى من أبيه .. وبسرعة اكتشف أن ليس هناك عمل له عما قاله جولدمان .. وليس مكتب عمل ولا مواعيد عمل .. بل العمل الذى قالوا له عنه لم يعلن .. أصبح كأنه سر لا يفصح .. تأكد رفعت من أنه كان ذكيا عندما رفض العشرة جنيهات التى

قدمها له مالوكولم .. لقد أصبحت ثلاثين جنيها .. يقبضها فى ظرف مغلق يقدمه له جولدمان دون أن يذهب إلى ادارة المعهد ..

وكان أول ما استغل فيه المبلغ الذى وصل إليه هو أن التحق بمعهد لتعليم الكتابة على الآلة الكاتبة. وبدأ يتعلم الكتابة بالانجليزية. وعندما بدأ يتفوق فيها زاد من تعلم الكتابه على الآله بالحروف العربية .. ولكنه عندما اشترى آلة كاتبة بالتقسيط اشترى آلة بحروف انجليزية ..

وبعد شهور استطاع أن يقنع والده بأن ينتقلوا من سكن الدراسة .. أنه حى لم يعد يليق به بعد أن وجد عملا بمرتب كبير فى شركة أجنبية .. أنه يربح الآن .. واستسلم والده وتركه ينقلهم الى بيت فى حى الظاهر ..

إنه حى اليهود .. ولكن اليهود هم الطائفة الراقية فى مصر .. طائفة رجال الأعمال ..

***

وابتسم رفعت وهو يتذكر انبهاره وانبهار إخوته عندما انتقلوا إلى حى الظاهر .. لقد خيل إليهم أنهم ارتفعوا إلى وجه الدنيا رغم

أن البيت الذى سكنوه كان فى حارة . لم يكن أيامها يحلم بأنه سيعيش فى مثل هذا البيت .. بيت اللوردات .. المطل على النيل ..

ودخل البتلر إليه يدعوه إلى تناول طعام العشاء .. إن العشاء فى الساعة الثامنة والنصف كما تفرض التقاليد الإنجليزية .. وهى ساعة صحية .. تستطيع أن تأكل وتهضم وأنت محتفظ بكل نشاطك لا أن تأكل وتنام كما يفعل الأغبياء ..

وقام يحمل ذكرياته معه إلى مائدة الطعام ..

(٢)

واستطرد رفعت البيومى يسترجع ذكرياته وبين شفتيه هذه الابتسامة التى تقطر غرورا وتباهيا بذكائه الذى يفخر به دائما ويهنىء نفسه به ..

وقد مضى أكثر من عامين وهو ينسب نفسه طالبا فى المعهد البريطانى وعندما انتهت مدة التعليم وقد نجح فعلا وكان أول الناجحين ادعى أنه يعد لتقديم شهادة ماجستير سترسل إلى لندن ويمتحن فيها هناك .. وفى نفس الوقت كان يوسع اتصالاته بكل التجمعات الوطنية والسياسية على اختلاف أنواعها وألوانها .. إن له أصدقاء بين الشبان الوفديين والسعديين والدستوريين .. وأصدقاء من الإخوان المسلمين والشيوعيين .. بل إنه اكتشف أن القصر الملكى أقام تنظيما وطنيا لحسابه الخاص يتظاهر بالدعوة إلى الثورة .. واستطاع

أن يصادق بعض شبان هذا التنظيم دون أن يصارحهم بأنه يعرف عنهم شيئا .. إنه فقط شاب وطنى متحمس .. وكل ذلك دون أن ينسبه واحد من هذه الجماعات إلى الآخر .. ودون أن يثير الشك فى نياته .. وعلاقته بالشبان أدت إلى أن أصبحت له علاقات بالقادة والزعماء .. كان يذهب مع الشبان للاجتماع بهم ويسمع كل توجيهاتهم ويكتشف نياتهم السياسية .. وكان يستطيع دائما أن يجد سؤالا أو اثنين ويذهب وحده للقاء زعيم أو شخصية بارزة ليسأل ويتطور بالسؤال حتى يكتشف مزيدا من الأسرار .. ولم يكن يعتمد فى علاقاته على قدرته على الكلام الطويل فى كثير من المواضيع بل كان يقدم خدمات .. كان لايتأخر فى مساعدة طالب فى مذاكرة اللغة الانجليزية أيام الامتحانات حتى لو كان من طلبة الجامعة .. وكان يشترك فى كتابة المنشورات إذا طلب منه ويستطيع أن يسجل فيها حماسا يؤكد أنه فى قمة الوطنية .. وكان يتبرع من جيبه تبرعات صغيرة لتحقيق أى خطة وطنية .. كان يبحث بنفسه عن تقديم الخدمات .. ولكنه لايقدم خدمة الا لمن يحتاج اليه .. والذين لايحتاج إليهم لايعرفهم ..

وكل ذلك جعل منه خزينه لاتفرغ من المعلومات .. وفى كل يوم يجلس إلى الآلة الكاتبة ذات الحروف الانجليزية ويكتب رسالة طويلة يضمنها كل ماجمعه من معلومات ويضيف اليها رأيه ثم يرسلها إلى مستر مالوكولم فى السفارة البريطانية عن طريق مستر

جولدمان المدرس فى المعهد .. وأحيانا يذهب إلى مالكولم بنفسه فى بيته بالمعادى إذا كانت هناك مواضيع تتطلب مزيدا من الشرح .. وإعجاب مالوكولم وثقته به تزداد يوما بعد يوم حتى أنه فوجىء وهو يتسلم الظرف المغلق من جولدمان فى البار المجاور للمعهد بأنه يضم خمسين جنيها لا ثلاثين كما كانت ودون أن يطلب مزيدا ..

ولكنه بدأ يحاسب نفسه على انتسابه للمعهد كل هذه السنوات الطويلة .. إنه يخشى أن يعتبره شبان الحركة الوطنية مجرد موظف بريطانى وتبدأ الشكوك تثور حوله .. ثم إنه يجب أن تكون له صفة خاصة .. مهنة يعرف بها .. لن يكفيه ولن يستره الاستمرار فى ادعاء أن أباه غنى ويعيش معتمدا عليه مكتفيا بأرباح زراعة البطيخ .. إنه لن يستكمل شخصيته الا إذا كان له عمل يعرف به .. وقد فكر فى أن يعمل مدرسا للغة الانجليزية فى احدى المدارس الخاصة .. وفكر فى أن يعمل فى الصحافة .. إن أغلب المعلومات التى يحصل عليها ويخص بها مستر مالوكولم تصلح للنشر كأخبار فى الصحف .. ولكن لماذا يقتصر تفكيره على هذه المهام المتواضعه المحدودة القيمه والمحدودة الدخل .. لماذا لايستغل ذكاءه فى البحث عن الطريق الذى يصل به إلى القمة .. قمة القوة والمهابة الشخصية وقمة الثراء .. لماذا لايطمع فى أن يكون شخصية من الشخصيات المعروفة المبجلة بين الشخصيات المصرية .. انه واثق فى ذكائه ..

وذهب للقاء مستر مالوكولم فى يده بالمعادى وقال له وهو حريص ألا يبدو فى كلامه كأنه محتاج أو كأنه يشحذ :

– لقد أصبحت أحس أن انتسابى للمعهد البريطانى قد يضعف من شخصيتى ويؤثر فى نشاطى .. يجب أن يكون لى عمل واضح أستكمل به شخصيتى أمام أصدقائى .. وقد قررت أن أبحث عن عمل جديد ..

وقال مالوكولم من خلال ابتسامة خبيثة كأنه يستطيع أن يرى كل ما فى رأس رفعت :

– أى عمل ؟

وقال رفعت مدعيا الإصرار :

– عمل حر ..

وعاد مالوكولم يسأله من خلال ابتسامته الخبيثة :

– أى نوع من الأعمال الحرة ؟

وقال رفعت وهو يدعى اللامبالاة :

– لم أقرر بعد .. انى مازلت أدرس ما أمامى ..

وقال مالوكولم وهو يربت على كتفه :

– سأراك بعد يومين وأكون قد فكرت لك وقد أستطيع أن أساعدك ..

وقال رفعت مبتسما :

– لا أريد أن أتعبك ..

وقال مالوكولم :

– إنى أحب أن أتعب لك وإن كنت لن أتعب ..

وقبل أن ينصرف رفعت أمسك مالوكولم به وقال فى حماس كأنه خطرت له فكرة :

– اسمع .. تعال إلى هنا فى البيت يوم السبت .. فى الساعة السابعة مساء .. وتعال برباط عنق أسود .. خطرت على بالى فكرة ستعرفها يومها ..

وخرج رفعت حائرا .. ماذا أعد له مالوكولم يوم السبت .. لعله سيجمعه ببعض الشخصيات الانجليزية التى يمكن أن تعرض عليه عملا جديدا .. ورباط العنق الأسود الذى طلبه منه يعنى أن يرتدى بدلة سموكن .. لاشك أنه دعاه إلى حفلة عشاء فخمة رسمية .. ولكنه لايملك بدلة سموكن .. يجب أن يشترى واحدة .. هل معه ما يكفى لشراء مثل هذه البدلة .. وقضى أيامه وهو يسعى لشراء بدلة سموكن ويقارن بين الثمن وما فى جيبه .. إلى أن اشترى بدلة مستعملة « سكند هاند » و .. ولكنه كان حريصاً على أن تبرزه فى صورة لائقة محترمة .. واضطر أن يشترى قميصا منشى وأزرارا لامعة .. والكرافت الأسود .. بل اضطر ان يشترى حذاء أسود لامعا .. كل مايتطلبه السموكنج .. أضاع كل ما أدخره .. لايهم .. إنه لايسرف ولكنه يجازف .. وقد قرر منذ البداية ألا

يتردد أمام المجازفات التى تخطر بباله .. ولكن من سيقابل فى هذا الحفل .. ربما بشخصيات معروفه بعدائها للحركة الوطنية ويفضحه لقاؤه بها .. ولكن مالوكولم حدد له موعدا مبكرا قبل الحفل .. فى الساعة السابعة وسيعرف منه قائمة المدعوين وإما أن يختار البقاء أو ينصرف ..

وجاء يوم السبت .. وذهب إليه فى الموعد وهو يحمل قائمة بالمعلومات الدسمة كأنه يرشوه بها .. وقال له مالوكولم بسرعة :

– سأصحبك إلى العشاء فى بيت منصور باشا فكرى .. لقد اتفقت معه على دعوتك ..

واهتز كل كيان رفعت .. إنه لايعرف منصور فكرى شخصيا ولكنه معروف بأنه رجل الإنجليز الأول فى مصر .. وعن طريق الأنجليز استطاع أن يكون أقوى رجل فى مصر .. وأثرى أثرياء مصر .. إنه يملك عشرات الشركات الصناعية والتجارية .. وأصبح عن طريق الإنجليز يتحكم فى كل الحكومات المصرية .. وأصبح باشا .. كيف يذهب إلى بيت منصور فكرى فى حين أنه حريص على أن يعرف بين الناس بشخصية الوطنى الثائر ..

ولاحظ مالوكولم اهتزازه وقال ضاحكا :

– لن تلتقى هناك بمن يشى بك إلى أصدقائك .. ثم إنه أفضل من يستطيع أن يجد لك عملا حرا من الأعمال التى تبحث عنها ..

وأفكار لاتزال تعصف بعقله .. لماذا لايذهب ويتعرف بمنصور باشا فكرى .. لماذا لايجازف .. إنها أمنية لم يكن يحلم بتحقيقها .. ثم إن كل الزعماء ورؤساء الأحزاب يتشرفون بلقاء منصور فكرى .. بل إن كلا منهم يتحكم فى فترة يجعل فيها من منصور فكرى شخصية وطنية يقدمها للشعب كأنها شخصية زاهية نظيفة فى وطنيتها .. بل قبل إن منصور فكرى بدأ يفكر فى إقامة حزب سياسى خاص به .. لاشك أنه سيكون حزب الإنجليز .. المهم أنه يجب ألا يخاف .. ولايتردد .. يجب أن يجازف إلى أبعد ويتشرف بلقاء منصور فكرى ويحاول أن يستغله .. وهو يستطيع دائما أن يجد ما يبرر به هذا اللقاء أمام الجمعيات الثورية الوطنية .. إنه ليس أقل من باقى الزعماء والقادة الذين يذهبون إلى منصور فكرى ولكنه يتميز عنهم بأنه لايريد أن يصل إلى الحكم ولكنه يريد أن يكتشف أسرار الإنجليز حتى يحاربهم بأسرارهم .. هكذا سيقول إذا سأله أحد من هؤلاء الثوار ..

وقال رفعت لمالوكولم وهو يحاول أن يطرد حيرته عن مظهره :

– يكفى أن أتعرف به .. إنه فعلا شخصيه هامة ..

وذهب مع مالوكولم فى سيارته إلى قصر منصور فكرى فى مصر الجديدة وهو يراعى فى جلسته بجانبه ثم فى كل خطوة يخطوها أنه مرتد بدلة سموكن .. كان يحس كأنها كالبدلة العسكرية تفرض على لابسها قيودا مرسومة لكل حركة ..

وذهل عندما دخل القصر .. إنه حفل كبير .. والقاعات كلها مزدحمة بالعشرات رجالا ونساء .. ليس كل الرجال من الإنجليز إن بينهم شخصيات مصرية معروفة .. وهى شخصيات تمثل كل الأحزاب والاتجاهات السياسية .. وليس بينهم من يعرفونه معرفة شخصية .. لم يكن بينهم واحد من هذه الشخصيات التى تتولى قيادة الشباب من داخل الأحزاب .. الحمد لله أن لا أحد يعرفه .. والنساء أيضاً بينهن أيضاً مصريات كثيرات .. وبينهن هذه الشخصيات النسائية المعروفة فى إحياء الحفلات رغم أنهن لسن فنانات .. إنهن زوجات من كبار العائلات .. ولكن يكفى جمالهن ورشاقتهن وخفة دمهن .. إنهن كالأعلام التى ترفرف على المجتمع ..

وقدمه مالوكولم إلى منصور باشا الذى قال له فى تعال :

— سمعت عنك سمعا يسرك وسأراك غدا فى مكتبى ..

وكانت هذه هى الكلمة الوحيدة التى سمعها من منصور فكرى ليلتها وانشغل منصور عنه ببقية المدعوين، وكان يبدو كأنه يتجاهله كلما سقطت عيناه عليه صدفة .. ووقف رفعت فى جانب ملتصق بمالوكولم وهو يتطلع إلى المدعوين كأنه يجد نفسه فى عالم جديد .. غريب . إن كل من يراهم سبق أن سمع عنهم أو رأى صورهم فى الصحف .. وهو لايستطيع أن يجد طريقه بينهم .. لايعرف كيف يقدم نفسه إليهم أو كيف يبدأ حديثا معهم .. وأشد ما جذب عينيه هو النساء .. لم يكن يحلم بأن يقف معهن على أرض واحدة .. كل

هذا الجمال .. وكل هذه المجوهرات .. إن كلا منهن تحمل من المجوهرات ما يعجز عن شرائه كل بطيخ كفر البطيخ .. هل يأتى اليوم الذى يصبح فيه رجلا كهؤلاء الرجال وله نساء مثل هاتيك النساء ..

وأقبلت شابة صغيرة تصافح مالوكولم .. إنها ليست جميلة .. ولاترتدى ثوبا من هذه الثياب المذهلة .. وليس عليها أى قطعه من المجوهرات .. ولكنها إنجليزية .. وقدمها إليه مالوكولم قائلا بسرعة :

— رفعت .. مجدولين .. إنها جديدة على مصر .. سأتركك لتحدثها عن مصر حديث الشباب ..

وابتعد عنه مالوكولم بسرعة كأنه كان يريد أن يتخلص من عبئه ..

ووقف هو مبتسما أمام مجدولين وقد وجه كل ذكائه إليها .. ماذا يقول لها .. ماذا يفعل بها .. إنه هو شخصيا ليس له أى تجربة مع النساء أو البنات .. لقد عاش متفرغا حتى اليوم لاختيار طريقه وبناء نفسه .. بل إنه يعتبر حتى شابا بكرا رغم أنه تعدى الثالثة والعشرين من عمره .. هل يبدأ حياته بهذه الفتاة .. إنها ليست جميلة .. ولكنه هو نفسه لايعتبر نفسه وسيما ولم يطرأ فى حياته مايشد إحدى البنات إلى وسامته .. إن كفر البطيخ كانت بخيلة فى تشكيله علاوة على قصر قامته .. ولكن مجدولين ليست مجرد فتاة إنجليزية لقد عرف بحديثه معها أنها ابنة وكيل بنك باركليز الجديد الذى

عن أخيرا .. بل إنها أخذته وسارت به بين المدعوين وقدمته إلى أبيها .. إنه لاشك سيكون فى حاجة إلى معاشرة البنوك إذا أراد أن يحقق أحلامه .. بل ربما كان من مصلحته أن يسعى للزواج بمثل هذه الفتاة .. فتاة إنجليزية .. إن منصور باشا فكرى متزوج من إنجليزية .. لعله لم يكن يستطيع أن يصل إلى كل هذا المجد لو لم يكن متزوجا من إنجليزية .. إن الزوجة الإنجليزية هى الطريق السهل إلى السفارة البريطانية .. خصوصا إذا كانت ابنة رجل يحسب حسابه .. ابنة وكيل بنك باركليز ..

كل ذلك كان يدور فى خاطره وهو يستغل كل ذكائه وكل موهبته فى إطالة الحديث لاكتساب مشاعرها واهتمامها وشغلها بنفسه حتى لاتبعد عنه . وقال لها عند نهاية السهرة :

— هل سأراك غدا لنذهب إلى سقارة ..

وقالت فى مرح :

— لماذا غدا ..

وقال ضاحكا :

— لأن الجو فى مصر حار لايحتمل الانتظار بعكس الجو البارد فى لندن ..

وضحكت واتفقت على لقائه فى الغد، ولكن بعد أن تعمد أن يكون اللقاء فى الساعة الرابعة بعد الظهر لأنه فى الصباح يضع كل همه فى لقاء منصور باشا بمكتبه كما وعده ..

• • •

ذهب رفعت البيومى إلى مكتب منصور باشا فكرى وهو يجمع كل أعصابه حتى يثق فى نفسه ويقنع نفسه بأنه إنسان شاطر ذكى .. إن منصور باشا لم يكن ليقابله لولا توصية مالوكولم .. ومعنى هذا أن صداقته لمالوكولم يستطيع أن يفرض بها إرادته ويصل بها إلى ما يشاء .. إنه قوى بمالوكولم وليس فى حاجة إلى الاعتماد على قوة منصور باشا .. وتعمد وهو فى الطريق أن يشترى « بايب » ووقف فترة مع البائع حتى يتعلم منه كيف يحشوها بالدخان وكيف يشد أنفاسها منها .. إن كل من عرفهم من الإنجليز يدخنون البايب. وفى حفل العشاء الفخم كان كثيرون من المدعوين حتى من المصريين يحملون البايب بين أصابعهم .. وهو يريد أن يكون له مظهر الطابع الإنجليزى ومظهر الطبقة الأرستقراطية التى تعيش مع الإنجليز حتى يؤثر على منصور باشا ويقنعه بأنه ليس مبتدئا دخيلا على هذه الطبقة .. وإن كان لم يسترح عندما شد أول أنفاسه من البايب وانتابته نوبة من الكحة اكتفى بعدها بأن يحمل البايب بين أصابعه دون أن يقربها من فمه ..

ولم يستقبل الاستقبال الذى كان ينتظره اعتمادا على نفوذ مالوكولم .. لقد لطعه منصور باشا فى مكتب السكرتارية أكثر من نصف ساعة وهو جالس يتسلى باللعب بالبايب بين أصابعه ويحاول أن يبدأ أحاديث مع السكرتير حتى يكسب صداقته .. إن الصداقة الجديدة هى التى تشمل كل الطبقات من السكرتير إلى الرئيس ..

وسمح له أخيرا بالدخول إلى منصور باشا واستقبله جالسا إلى مكتبه وبين شفتيه ابتسامة باردة صغيرة كأنها كليشيه رسمى لاستقبال الزوار .. وقال له فورا دون أن يدعوه إلى الجلوس :

— مستر مالوكولم يثق فيك جدا وتكلم عنك كأنك أعجوبة ..

وقال رفعت وهو يتلفت حوله باحثا عن المقعد الذى يجلس عليه ثم جلس دون دعوة ودون استئذان :

— إنه صديق قديم ..

ونظر إليه منصور باشا وهو يراه يجلس بلا استئذان ولم يعترض ولكن كان فى نظرته امتعاض وقال :

— قال لى أنك تريد أن تعمل .. ماذا تعمل ؟

وقال رفعت وهو يتعمد الهدوء ويتعمد الجلوس فى أدب :

— الواقع أنى فى حاجة إلى دراسة كل مجالات العمل قبل أن أحدد ماذا أعمل .. ولاشك أن سعادتك خير من يوفر لى هذه الدراسة ..

وقال منصور باشا بلهجة سريعة كعادته عندما يتكلم :

- سأوصى مدير المكتب بأن يسهل لك مجال جمع المعلومات .. اقصد مجال الدراسة .. وسيكون لك مرتب .. مائة جنيه فى الشهر ..

وقال رفعت فى لهجة هادئة وهو يكتم هزة فرحته :

- شكرا ..

— هل تعرف برعى بك ..

وقال رفعت فى حيرة :

— برعى بك من ؟

وقال منصور باشا :

— برعى محمود .. ألا تعرفه .. غريبة ..

وقال رفعت كأنه يتذكر :

— أسمع عنه .. وأقرأ عنه .. ولكنى لا أعرفه شخصيا .. ولا أعرف عنه إلا أنه من كبار رجال الأعمال ..

ولوى منصور باشا شفتيه امتعاضا :

— حاول أن تعرف عنه كل شىء حتى لون وسادة الفراش الذى ينام عليه .. وبلغنى أنا شخصيا بكل المعلومات التى تحصل عليها .. سيكون لك حق لقائى فى أى وقت ..

وقال رفعت فى ضيق :

— سأحاول ..

وأشار منصور باشا إلى الباب بأصبعه كأنه يطرده قائلا :

— تستطيع الآن أن تذهب للقاء مدير مكتبى .. إن لديه كل المعلومات التى تخصك ..

وخرج رفعت وهو يحاول أن يفسر كل كلمة سمعها من منصور باشا .. إنه يريده أن يعمل لحسابه الخاص .. أى أن يسلمه

هو شخصيا كل المعلومات التى يحصل عليها .. ويكون له حق توجيهه إلى نوع المعلومات التى يريدها .. لا .. لن يتنازل عن اتصالاته وصداقته لمالوكولم .. لن يكون فى خدمة منصور باشا بل فى خدمة مالوكولم حتى يحتفظ بقوته .. قوة مباشرة .. ولكنه لايريد أن يرضى منصور باشا .. إنه هو الآخر قوة لايستهان بها .. ثم إنه سيدفع له أتعابه .. مائة جنيه فى الشهر .. لاشك أنه اتفق مع مالوكولم على هذه الأتعاب لتكون بديلا عن الخمسين جنيها التى ترسلها له السفارة على يد مستر جولدمان .. إن مالوكولم يريد أن يبعده عن كل الشبهات .. لم يعد يتقاضى أتعابه من السفارة بل من شركة الإنشاءات التى يملكها منصور باشا كأى موظف عادى ..

ولكن لماذا يهتم منصور باشا كل هذا الاهتمام بأخبار برعى بك محمود كأنه يبحث عن أسرار عدوه ليحاربه بها .. إنه لايدرى بعد ..

ودخل إلى مدير المكتب وقد استقبله بترحاب كبير وأحس بعد لحظات أنه يعرف عنه كل شىء .. يعرف حقيقة عمله .. ويعرف القوة التى استند عليها ودفعته إلى العمل فى هذه الشركة .. وقد كان شخصية سهلة قدر رفعت أنه يستطيع أن يكسبها بسهولة .. وجلس معه جلسة طويلة بذر خلالها بذور صداقته وقام منصرفا بعد أن اتفق معه على وضعه الذى سيكون عليه فى الشركة ..

ووجد نفسه بعد أن خرج يتجه إلى حى الدراسة .. بداية طريقه منذ جاء من كفر البطيخ إلى القاهرة .. ومهبط وحيه .. إن كثيرين من أصدقائه الشبان الوطنيين لايزالون يقيمون فى حى الدراسة .. ويحس إحساسا غريبا كأنه يريد أن يعتذر لهم عن علاقته الجديدة بمنصور فكرى .. يريد أن ينفى تهمة لم توجه إليه بعد .. وجلس فى مقهى عزوز الذى تعود أن يجتمع فيه بأصدقائه ويسرق منهم معلوماتهم عن الحركة الوطنية .. وأرسل فى طلب رطل كباب من الكبابجى المجاور .. لقد كان الكباب أيامها يقدم فى المطاعم بالرطل لا بالكيلو كما يقدم هذه الأيام .. ولم يلبث طويلا حتى بدأ أصدقاؤه يتجمعون حوله .. وقال دون أن يسأله أحد وكأنه يريد أن يتخلص من عقدة الدفاع عن نفسه .. العقدة التى تهرى أعصابه :

— لقد وجدت أخيرا وظيفة .. فى شركة الإنشاءات ..

وقال أحد الأصدقاء فورا :

— إنها شركة يملكها منصور فكرى .. احترس ..

وقال رفعت ضاحكا :

— لا أدرى من يملكها .. كل ما أدريه أنى فى حاجة إلى وظيفة وقد وجدتها فى هذه الشركة .. والعمل شىء والسياسة شىء آخر ..

وقال صديق آخر :

— يقال أنه سيؤسس حزبا سياسيا جديدا وقد يفكر فى أن يضم إليه كل موظفى شركاته ..

وقال رفعت كأنه يهتف :

— مستحيل .. إنهم لم يشترطوا على الانضمام لحزب وإلا لما قبلت الوظيفة .. وأنتم تعرفوننى .. إنى أضع حريتى فوق كل الأحزاب .. ولعل هذا كلام .. وقد قرأت فى الصحف أن منصور فكرى كان فى زيارة النحاس باشا فهل كان يعرض عليه الانضمام لحزبه الجديد .. كلام ..

وطال النقاش إلى أن قام رفعت منصرفا وهو مطمئن إلى أنه احتفظ بثقة أصدقائه ولن يتعرض لأى اتهام ..

• • •

كانت الساعة قد قاربت الرابعه .. موعده مع مجدولين .. وكان الاتفاق أن يمر بها فى بيتها بالزمالك .. بيت وكيل بنك باركليز .. ويأخذها من هناك إلى سقارة .. وقد أخرج من جيبه البايب الذى كان قد اشتراه فى الصباح وأخذ يجرب وهو فى طريقة إشعاله وشد أنفاسه ثم يعجز فيكتفى باحتضانه بأصابعه متباهيا بالمظهر الإنجليزى .. لقد كان حريصا أن يخفى هذا البايب عن أصدقائه الذين التقى بهم .. لايريد أن يتصوروا أنه ارتقى إلى مرتبة الإنجليز .. ولن يروا البايب فى يده .. ولن يروا البدلة الاسمو كنج طبعا ..

وفتحت له مجدولين الباب وبين شفتيها ابتسامة واسعة ووجهها يفيض مرحا .. لقد كانت فعلا فى انتظاره .. ووضعت ذراعها فى ذراعه وشدته خارجة إلى الشارع ..

وقال وهو يحس بلحم ذراعها ملتصقا بذراعه :

— ليس عندى سيارة ..

وقالت ضاحكة :

— ولا أنا ..

قال وهو يضغط بذراعه على ذراعها :

— سنركب سيارة أجره ..

قالت فى مرح :

— كما تريد ..

قال من خلال ابتسامه تملأ وجهه الفلاحى :

— المسافة بعيدة والوقت قصير ..مارأيك لو ذهبنا إلى الهرم بدلا من سقارة .. إنى واثق أن هناك الكثير لم ترينه من الأهرام ..

قالت ضاحكة :

— موافقه ..

وخطا بها خطوات وهو سعيد بذراعها تحت ذراعه .. لم تعطه امرأة من قبل ولا حتى ذراعها .. ثم قال وابتسامته تنضج بذكائه :

— هل تريدين أن تحسي وتتفرجي على مصر كلها .. تعالى نذهب فى الترام .. إن الترام فى مصر يصلح منتدى للأصدقاء ..

وصاحت فرحه :

— فكرة رائعة .. إنى منذ وصلت مصر وأنا أتمنى أن أركب الترام .. ليس عندنا فى لندن ترام مثله ..

واستراح لفرحتها .. إنه كان يسعى للتوفير .. إن أجر السيارة حتى الهرم لن يقل عن ثلاثين قرشا ولكن الترام لن يكلفه أكثر من قرشين وأربعة مليمات ..

وركبا الترام .. درجة أولى .. وهى طول الوقت ملتصقة به دون أن تحس بعتاب نظرات بقية الركاب ولابسخطهم .. وهو لايكف عن الكلام .. يحدثها عن تاريخ الفراعنة .. وعن تاريخه هو شخصيا .. ويدمج حديثه كلمات الاعجاب بها والاجتذاب إليها .. ثم طاف بها الأهرام ودخلها فيها وفى كل مناسبة يزداد التصاقا بها وهى مقبلة على مزيد من الالتصاق .. إلى أن ركبا جملا .. جمل واحد .. هى فى مقدمة السنام وهو جالس وراءها ملتصقا كله بها .. وأحس بالجمل وهو يتحرك يجعله يتحرك فوق ظهرها .. إن كل مافيه يتحرك .. إحساس لم يكن يحس به إلا عندما يحلم فى نومه .. واشتدت به أعصابه الهائجة حتى كفيه واحتضن بها صدرها .. وهى مستسلمة .. ترتكز بظهرها عليه أكثر حتى تمكنه منها أكثر .. ولكن هبت عليه زوبعة من الخوف .. أنه

يخاف أن يتهور وتدفعه فحولته رغما عنه إلى أن يأخذها أمام الناس .. فأمر صاحب الجمل بأن يهبط بهما على الأرض .. وقفز من فوق الجمل بسرعة كأنه يهرب ويريح نفسه مما هو فيه ..

وعاد بها فى سيارة أجرة .. لم يعد يحتمل حالته ولم تغلبه نزعة التوفير .. وقد جلس بجانبها فى السيارة كأنه خجل منها لايستطيع أن يرفع عينيه إليها .. كان يعتقد أنه فقد أعصابه معها فوق الجمل مما لايشرف مصريا أمام فتاة إنجليزية .. قد تقول عنه أنه حيوان تتمكن منه مطالب الحيوان .. وهى بالعكس .. تنظر إليه متعجبة من ارتباكه ومن اختصاره فى حديثه الطويل الذى عودها عليه .. لقد كانت هى التى تتحدث .. وتتحدث طويلا وتحتضن يده بيدها وتلصق كتفها بكتفه ، لعلها تعيد إليه إحساسه .. إحساسه بها كما كانا فوق الجمل .. وكلاهما لم يفصح عما أحس به فوق الجمل ..

وقالت له وهو يودعها أمام البيت :

— تعال .. كوب من الشاى ..

قال وهو يلتهمها بعينيه بعد أن هدأت كل أعصابه :

— آسف .. مرتبط بعمل ..

قالت وهى ملتصقة به :

— سأراك غدا ..

قال سعيدا :

— أين ؟

قالت وهى تحتضنه بعينيها :

– هنا .. فى البيت .. نشرب الشاى معا .. فى الساعة الرابعة .. إنى أعرف أنك مشغول دائماً فى الصباح ..

وظلت وعيناها معلقتان بعينيه كأنها تنتظر منه شيئا .. وهو مكتف بيدها فى يده وابتسامته بين شفتيه .. وكأنها يئست من أن يتحرك فانحنت فجأة وقبلته قبله سريعه على وجنته ثم اختفت داخل البيت .. انحنت لأنها أطول منه قامة ..

• • •

وكان رفعت مرتبطا فعلا بعمل ..

كان يريد أن يبحث وراء برعى بك محمود كما طلب منه منصور باشا فكرى .. وطاف بالأصدقاء والمعارف الذين يعتقد أنهم يعرفون برعى محمود .. طوال الليل وطوال صباح اليوم التالى وهو يبحث .. ووصل إلى معلومات لم تكن تخطر على باله ولاتثير اهتمامه ..

ان برعى محمود هو رجل أمريكا الأول فى مصر ..

ولكن ..

إن منصور فكرى هو رجل بريطانيا الأول فى مصر .. غريبة ..

إن بريطانيا تقيم حلقة واسعة من التجسس على أمريكا فى مصر ..

لم يكن هذا يخطر على باله ..

(٣)

كان رفعت البيومى قد فوجىء بأن لأمريكا رجلا فى مصر تعتمد عليه السفارة الأمريكية ومن خلفها واشنطن .. وهو برعى بك محمود .. وقد لام نفسه لأنه فوجىء .. لم يتسع ذكاؤه ليكتشف أن أمريكا بعد الحرب أصبحت فى مصر .. ولم يقدر أنها أصبحت الأقوى بعد أن كان لها الفضل فى تحقيق الانتصار على النازى فى الحرب العالمية .. وهو فضل مفروض أن يحملها مسئولية العالم كله .. كان ذكاؤه محصورا فى الواقع القديم الذى يفترض أن بريطانيا هى القوة الوحيدة فى مصر .. الدولة التى لاتزال تحتل مصر بقواتها ..

وربما كان أحد أسباب المفاجأة أن أمريكا فى أيامها كانت تتحرك داخل مصر فى هدوء وخفية حتى لايحس أحد فى مصر بها .. كان المصريون لايحسون بأمريكا إلا من خلال أفلام الحرب

ورعاة البقر التى تعرض عليهم .. وكان أشهر مشروع شعبى أقامته أمريكا فى مصر هو بناء سينما مترو .. فى حين أن بريطانيا كانت تعيش بين المصريين بتاريخ الاحتلال المرير .. وكل مصرى يفتح عينيه كل صباح مطالبا بالجلاء .. وكانت مصر تعيش قضية وطنية مع بريطانيا ، ولذلك لم تحس إلا ببريطانيا .. وبريطانيا لم تكن تنكر وجودها فى مصر ، وكانت تجاهر بحق سيطرتها على مصر ، وحتى بحق تدخلها فى اختيار الوزارات والوزراء وفى كل كبيرة وصغيرة من شئون مصر ..

ولذلك كان رفعت البيومى معذورا فى جهله بالنشاط الأمريكى فى مصر .. ثم إن برعى بك محمود نفسه لم يكن يجاهر بأنه رجل أمريكا الأول فى مصر ولا حتى كان يجاهر بأصدقائه الأمريكان .. كان كل ما هو معروف عنه فى مصر أنه رجل أعمال شاطر .. فى حين أن منصور باشا فكرى كان يجاهر متفاخرا متباهيا بأنه رجل الإنجليز الأول فى مصر .. وإن كل بريطانيا وكل السياسة البريطانية الخاصة بمصر بين يديه .. لن يستطيع حزب أن يتولى الحكم إلا بالاتفاق معه ، ولن يستطيع أحد أن يكسب رضا بريطانيا أو يقوم بأى عملية معها إلا عن طريقه .. هذا الفارق جعل من برعى محمود شخصية مجهولة سياسيا ، وجعل من منصور فكرى عدوا من أعداء الحركة الوطنية ومن أعداء الشعب ..

وان كان رفعت قد اكتشف بعد أن بدأ اهتمامه ببرعى محمود أنه أصدر كتابا أو تقريرا عن مجالات التعاون الجديد بين مصر وأمريكا .. كتاب يشيد فيه بنيات أمريكا ويؤكد أنها الدولة التى تقوم على مساعدة الدول الصغيرة فى بناء نفسها دون أن يكون لها مطمع فى الاستيلاء أو السيطرة عليها ، ثم تضمن الكتاب بحثا علميا عن مجالات التعاون التجارى والاقتصادى مع أمريكا .. وكان هذا الكتاب يكفى لإثارة الشكوك والاتهامات حول برعى محمود . ولكنه تعمد ألا يوزع هذا الكتاب شعبيا إنما أكتفى بأن يصل إلى الشخصيات المصرية التى يعتقد أنها قابلة للتعاون معه ، وذلك حتى لايعرف شعبيا أنه أمريكى ..

وأيامها عندما اكتشف رفعت بذكائه أن أمريكا فى مصر بدأ يسائل نفسه .. لماذا لاينقل نشاطه من بريطانيا إلى أمريكا .. لماذا لايسعى إلى السفارة الأمريكية حتى يكسب صداقتها واعتمادها عليه بدلا من السفارة البريطانية .. ربما كان التعامل مع أمريكا أسهل ويدر مكاسب أسخى لأنها لاتزال فى مرحلة تكوينها .. مرحلة فرض وجودها فى مصر .. ولكنه طرد هذا الخاطر عن ذكائه بسرعة .. ما فى اليد خير مما على الشجرة ..

وقد فوجىء بعد أيام من عمله فى مكتب منصور باشا فكرى بشركة الإنشاءات ، فوجىء به يستدعيه إلى مكتبه ويبادره قائلا وهو

جالس على مقعده ودون أى كلمة تحية كعادته التى اكتسبها من الرؤساء الإنجليز :

— هل جمعت معلومات عن برعى محمود ..

دهش من استدعائه لإلقاء هذا السؤال .. لقد كان المفروض أن ينتظر الباشا حتى يجمع هو المعلومات ويتقدم بها إليه دون حاجة إلى استدعائه .. هكذا أصول وتقاليد هذا النوع من العمل .. وقد دهش رفعت أكثر من لهجة الحقد التى ألقى بها الباشا سؤاله .. إنه يكره برعى محمود إلى حد لايستطيع الانتظار كما تقضى التقاليد .. إنه فى حرب معه لاتحتمل الانتظار ..

وقال رفعت وهو واقف فى مكانه دون أن يحاول فرض شخصيته بالجلوس على مقعد :

— عرفت عنه أنه أمريكانى .. بل رجل أمريكا الأول فى مصر ولا شك أنك تعرف عنه هذا لذلك لم أجد داعيا لابلاغك عنه ..

وقال الباشا فى لهجة جافة :

— وماذا عرفت أيضا ؟

وقال رفعت بعد أن زفر نفسه الضيق :

— اسمع يا باشا .. ليس من مهمتى أن أنقل إليك معلومات عادية عن برعى محمود .. من قابل وأين ذهب وماذا تم .. ليست هذه هى مهمتى .. إنها مهمة أى شخص عادى .. ولكنى أنقل إليك ما يمكن أن يصل إلى من عمليات هامة كبيرة خطيرة يقوم بها برعى .. ولم يصل إلى شىء هام حتى الآن .. وثق أنى مهتم .. اطمئن .. إنى أعلم أنك تجربنى أو أنك تضعنى فى حالة اختبار وستفرح بى .. فقط أرجوك الانتظار على ..

وزم منصور باشا فكرى بشفتيه ثم عاد والتفت بعينيه إلى الأوراق التى أمامه كأنه يأمر رفعت بالانصراف ..

وانصرف رفعت فعلا وبين شفتيه ابتسامة ساخرة ..

• • •

وكان رفعت البيومى قد بدأ فعلا يركز كل اهتمامه بتتبع أخبار برعى بك محمود ، واستطاع أن يجمع حوله بعض الشبان الذين يستطيعون أن يحدثوه عنه .. وإن كان الحديث دائما فارغا لأن برعى يتعمد ألا يكون له شخصية عامة وألا يعيش وسط مجالات الحركة الوطنية التى يعيش فيها رفعت .. بل إن رفعت كان بزلاقة لسانه يتعمد عندما يقابل الشخصيات الكبيرة أن يثير الحديث عن برعى محمود ولكنه أيضا لم يكن يصل إلى شىء سوى المعلومات العامة التى يمكن أن يعرفها غيره .. لم يصل إلى سر .. وقد استطاع

أخيرا أن يصل إلى صداقة شاب فى الخامسة والعشرين من عمره يعمل فى مكتب برعى محمود .. اسمه ممدوح طوسون .. وقد اهتم كثيرا بتوطيد صداقته بممدوح .. إنه أقرب من يعرفه إلى برعى .. وأقربهم إلى أوراق برعى .. وبنى على صداقته به أحلاما واسعة ..

وكان رفعت فى نفس الوقت يعيش قصته مع الفتاة الإنجليزية جدولين .. ابنة وكيل بنك باركليز والقصة تتسع .. وتتسع .. إلى أن وصلت إلى نهايتها ..

وقد دخل بيتها لأول مرة عندما دعته إلى تناول الشاى بعد أن كان قد دعاها فى اليوم السابق إلى نزهة الهرم وقضيا الساعات وهما متلامسان إلى أن عاش جسداهما فى احتكاك متصل وهما على ظهر جمل واحد يطوف بهما .. لقد احتار ساعتها كيف يطفىء النار التى اندلعت فى كل أعصابه وأثارت كل نقرة من جسده .. كيف يأخذها لتكون أول امرأة يأخذها فى حياته بعد الحرمان الطويل الذى عاشه العمر كله .. لم يكن حرمانا ولكنه كان مشغولا عن نفسه وعن إشباع طبيعته حتى أصبحت هذه هى عادته .. حتى أنه خجل من نفسه وهو معها على ظهر الجمل وخشى أن تعتبره مجرد رجل متوحش ، فهرب من فوق الجمل ..

وقد دهش وهو فى بيتها بأن وجد أنها وحدها .. لا أبوها ولا أمها ولا أحد آخر .. ودخل كبير الخدم « البتلر » وهو فى زيه

الرسمى كأنه رئيس الوزراء يتقدم لخدمة صاحب الجلالة .. ووضع أمامها معدات الشاى وانصرف وتركها وحدهما فوق الأريكة العريضة .. وهو يتتبع بعينيه البتلر وهو خارج .. إنه من يومها وهو يتمنى أن يكون له بتلر خاص بخدمته إلى أن استطاع أن يحقق أمنيته ..

وحاول أن يستغل موهبته فى إطالة الحديث معها ولكن ذكريات أمس .. ذكريات التلامس والاحتكاك لاتريد أن تفارقه ، بل إنها بدأت تتفاعل على أعصابه ويحس أنه يريد أن يبدأ فى إعادة التلامس والاحتكاك .. وكانت هى التى بدأت كأنها ضاقت بتردده .. وضعت يدها فى يده .. فشدها إليه لتلامس كتفه كتفها .. إنه لم يعد حائرا مترددا كالأمس .. فمد ذراعيه واحتضنها إلى صدره .. ولامس خدها بخده .. ثم وصلت شفتاه إلى شفتيها .. أول قبلة له معها .. والقبلة تشتد كأنه بدأ فيها .. يأكل شفتيها .. إنها أول قبلة فى حياته ولايدرى كيف يسيطر عليها وينظمها وفقا لأصول القبل .. ولكنه يترك نفسه على طبيعته تملكه وتحكمه .. وهى مستسلمة .. وتبادله .. لا .. هناك حدود .. إنها عذراء وتصر على أن تبقى عذراء .. إنه لم يكن يعرف أنه حتى بين الفتيات الإنجليزيات عذراوات ..

وقد تباعدا بعد أن نفضا ثورة جسديهما دون أن يأخذ منها أكثر مما أرادت أن تعطيه .. إنها لاتزال عذراء وهو الذى كان بكرا

وفض بكارته .. إنها المرة الأولى فى حياته التى يجتمع فيها بامرأة وينفث معها ما كانت تلح عليه به أعصابه ..

وكانا جالسين على الأرض ملتصقين بالأريكة عندما دخل والدها وقد عاد من الخارج ونظر إليهما وبين شفتيه ابتسامة واسعة قائلا :

— هاللو ..

وقفز رفعت منطورا واقفا وهو يحاول أن يكتم رعشته .. ماذا يقول الأب وهو يرى ابنته على الأرض وبجانبها شاب .. الحمد لله أنهما لم يخلعا ثيابهما .. ماذا كان يمكن أن يفعل به الأب وماذا كان يمكن أن يقول .. ومجدولين ظلت جالسة على الأرض تستقبل ابتسامة أبيها بابتسامة أوسع وقالت :

— إنه رفعت البيومى .. هل تعرفه ..

وتقدم الأب ومعه ابتسامته ومد يده يصافح رفعت وهو يقول :

— إنك صديق لمالوكولم .. إنه يتحدث عنك باعجاب شديد .. عن إذنك ..

وخرج الأب وتركهما وحدهما كما كانا .. وألقى رفعت بنفسه على الأريكة وهو يلهث .. لعل ما جرى بينه وبين مجدولين

لايخرج عن التقاليد الإنجليزية ولايحرمها حتى أن الأب يوافق عليها ..

وقد تركها ليلتها وهما على موعد فى اليوم التالى .. إنها تريده .. وقد تركها وهو حائر فيما يجرى معها ويسأل نفسه عن مستقبل مايجرى .. ولكنه خرج وقد طرأت على باله فكرة جديدة يجب أن يحققها .. يجب أن يكون له بيت فى مستوى بيت مجدولين .. بيت يقيم فيه وحده بعيدا عن إخوته وعائلته .. وهو يستطيع الآن أن يكون له بيت فى مستوى بيوت الطبقة الراقية الأرستقراطية .. إن دخله وصل إلى مائة جنيه فى الشهر .. وهو ما يكفى ليكون له مثل هذا البيت ..

ومن ساعتها بدأ البحث عن شقة فى حى من الأحياء الراقية .. ووجدها فى جاردن سيتى .. لقد بدأ حياته فى كفر البطيخ .. ثم فى حى الدراسة .. ثم فى حى الظاهر .. والآن وصل إلى جاردن سيتى .. إنها نعمة الذكاء .. وإيجار الشقة أثنا عشر جنيها فى الشهر .. كانت هذه أيامها أسعار الإيجارات الغاليه .. وهو سيعيش فيها وحده ويبقى عائلته فى شقة حى الظاهر .. ولن يبخل عليهم .. سيستمر فى إعالتهم .. عشرة جنيهات فى الشهر أكثر ما يدفعه أبوه من إيرادات كفر البطيخ .. وسيبقى له ما يكفيه من المائة جنيه ... ما يكفى مظاهره التى يحتاج إليها ..

وقد تعمد قبل أن يوقع عقد الإيجار أن يصطحب مجدولين إلى الشقه لتبدى رأيها فيها .. إنها ستكون شقتها .. بيتها .. هكذا قال لها ..

وقد كانت مجدولين قد ملأت حياته كلها .. حياته بعيدا عن عمله .. كانا يلتقيان كل يوم تقريبا .. وكانت تدعوه إلى البيت فى كل مناسبة حتى أحس كأنه صديق لأبيها ولأمها ولو أن صداقتها صداقة إنجليزية باردة .. وكان يدعى فى جميع الحفلات والسهرات التى يقيمونها ،وكان حريصا على أن يسأل عن أسماء باقى المدعوين حتى يضع حدودا لإشاعة صداقته بالإنجليز .. وما بينه وبين مجدولين مستمر كلما وجدا نفسيهما وحدهما فى بيتها حتى أصبح يتم دون افتعال كأنه شىء طبيعى .. كأنه يحدث بين زوج وزوجته وإن كانت لاتزال مصرة على أن تبقى عذراء .. وكان نهما فى انطلاقه معها كأنه فى حاجة إلى تعويض السنوات الطويلة التى قضاها فى جوع .. أو بعيدا عن طبيعة رجولته ..

ولكن ..

هل يتزوجها ؟

إن مجدولين لا تثير موضوع الزواج ولا تعبر أبدا عن رغبتها فى أن تتزوجه .. ولكنها قطعا لن ترفض الزواج إذا عرضه عليها .. وهو لن يتزوجها لأنها جميلة .. إنه يعرف انها ليست جميلة .. ولن

يتزوجها لأنه يحبها إنه لا يعرف الحب .. لا يعرف إلا ما يحقق به أهدافه وأحلامه .. ولكنه يفكر فى أن يتزوجها لأنها إنجليزية ..

إن معظم الذين وصلوا إلى القمم فى مصر كانوا متزوجين من إنجليزيات .. منصور باشا فكرى متزوج من إنجليزية .. إن الزواج من انجليزيه يعتبر كأنه زواج من بريطانيا كلها فتفتح له كل أبواب بريطانيا .. ومجدولين رغم كل شىء قريبة مما يرضى التقاليد التى تعينه على اختيار زوجته .. إنها على الأقل لا تزال عذراء .. ثم إنها خلال كل تلك الأيام أصبحت معه فى كل شىء .. فى كل فكره وعاداته ومزاجه .. كأنها فعلا أصبحت نصفه الآخر .. ولكن .. لا .. إن زواجه من إنجليزية يؤكد انتماءه إلى بريطانيا .. يجعله يبدو أمام الناس ،وخصوصا أفراد الحركات الوطنية كأنه أصبح إنجليزيا .. لا .. يجب أن يبدو كأنه وطنى متحفظ متزمت لا يمكن أن يرضى لنفسه أن يتزوج إنجليزيه ولو كانت ملكة بريطانيا نفسها .. يجب أن يبدو كأن مصريته مصرية طاغية عليه متمكنة منه بحيث لا يمكن أن يتزوج إلا مصرية ..

ورغم ذلك فهو لايزال يفكر فى الزواج من مجدولين ..

وهو يتذكر يوم أخذها معه لتبدى رأيها فى الشقة الجديدة بحى جاردن سيتى .. لقد فرحت بها .. ثم بدأت تشاركه فى تأثيثها .. بل ربما كانت هى التى أثثتها .. كانت تحمل له قطع الأثاث واللوحات التى تعلقها على الحائط والتحف التى تنثرها هنا وهناك ..

ولم تكن تطالبه بثمن ما تأتى به .. وحتى لم تكن تعتبر ما تأتى به كأنه هدايا .. إنها تحس وتعلن أحساسها بأنها فى بيتها .. بيتهما معا .. البيت الذى تفيض فرحتها به على كل تصرفاتها .. حتى أنها أصبحت تحمل مفتاحا للشقة خاصا بها .. مادام البيت بيتها ..

وهو يذكر والشقة لم يكتمل تأثيثها وليس فيها إلا مقعد أو مقعدان أن كانا هناك عندما ثارت بينهما رغبة التلامس فاحتضنها وترك نفسه لمنتهى عنفه كما عودها إلى أن يصل إلى ما يدفعها إلى مقاومة هذا العنف .. ولكن من يومها وهما راقدان على أرض الحجرة .. أرض خشبية بلا سجاد .. يومها لم تقاومه أبدا .. بل عاشت كل عنفه حتى وصلت بنفسها إلى المنتهى .. منتهى العنف ..

ولم تعد عذراء ..

ولم يبد عليها شىء من الحسرة أو الندم .. لم تبد كأنما ضاع منها شىء أو كأنها ضحت بشىء .. أن هذا كان ما تريده وما قررته هى .. لم يغتصبها .. إنها أقوى من أن تستسلم لاغتصاب .. وقد بدأ يفكر فى الزواج بها أكثر ..

إنه هو المسئول ..

هو الذى جعل منها امرأة ليست عذراء ..

ثم إنه يستطيع أن يجد ما يبرر به زواجه محتفظا بصورة الشخصية المصرية متكاملة ..

وقد بدءا يتحادثان فعلا عن الزواج .. ولكنهما لا يتحادثان جادين إنما يتعمدان أن يكون حديثهما كأنهما يتضاحكان ..

• • •

وعثر رفعت على سر من أسرار برعى بك محمود .. وقد كشف له عن السر صديقه الجديد ممدوح طوسون الذى يعمل فى مكتب برعى .. ولكن ممدوح لم يكن يتصور أنه يكشف عن سر .. كان يتصور أنها مجرد عملية عادية .. عملية بيع وشراء .. ولكنها سر هائل ..

كان برعى محمود قد بدأ يعد لعقد صفقة توريد أسلحة إلى مصر .. أسلحة أمريكية .. وقد استطاع أن يقيم علاقات قوية مع كثير من ضباط الجيش الذين يتولون مراكز إدارية .. بل إنه وطد علاقته مع وزير الحربية .. وصفقات الأسلحة لاتتم إلا بعد توزيع إغراءات سخية على المسئولين .. لاشك أن برعى قد وعدهم بعمولات هائلة .. رشاوى .. ومعروف أن أمريكا سخية فى تعاملها مع الوسطاء والمسئولين ..

وهى أول مرة فى التاريخ يمكن أن تصل فيها أسلحة أمريكية إلى مصر .. إن بريطانيا وحدها هى المسئولة عن تسليح الجيش المصرى .. إنها تحتكر تسليح الجيش .. بل إن تسليح الجيش يدخل ضمن مخطط الأمن لحماية الاحتلال .. لاتسمح بريطانيا أبدا بأن

يكون الجيش المصرى أقوى من الاحتلال أو أن يصبح فى حالة يستطيع بها أن يعكر أمن الاحتلال .. وكانت بريطانيا تتساهل أحيانا فى أن تترك لمصر الحرية فى إستيراد السلاح من أسبانيا أو من إيطاليا .. بل ربما كانت تشترك فى هذه العمليات حتى تتأكد من أن الأسلحة التى تصل مصر لاتساوى شيئا إلا مجرد المظهر .. مظهر التسليح .. وكلها أسلحة خفيفة وقديمة وفاسدة .. بل إنها تركت المقاتلين المصريين أيام حرب ١٩٤٨ مع إسرائيل يسرقون الأسلحة من ثكنات الجيش البريطانى .. وكانت تعلم مقدما قيمة هذه الأسلحة بالنسبة للمعركة وبالنسبة لتحقيق سياستها التى تفرض إقامة دولة إسرائيل ..

ولكن هذه هى أول مرة تحاول فيها مصر استيراد الأسلحة من أمريكا .. وكأن أمريكا ستحل محل بريطانيا فى تسليح الجيش المصرى وهو ماتمهد لتحل محلها فى السيطرة على مصر .. هل توافق بريطانيا على مثل هذه الصفقة .. لم لا .. إن بريطانيا فى تحالف مع أمريكا ولعلها اتفقت معها على أن تورد إلى مصر نفس الأسلحة الخفيفة الفاسدة ومتفقة معها على حماية أمن الاحتلال .. ولكن .. هل اتصل برعى محمود بالسفارة البريطانية بخصوص هذه الصفقة كما يتصل قطعا بالسفارة الأمريكية .. هل تعلم بريطانيا بهذا السر الهائل .. إنه لايدرى ..

المهم أن يبلغ الخبر حالا إلى منصور باشا فكرى .. قد يذهل للخبر ويخرج رفعت من هذا الذهول باعتراف منصور باشا به وتقديره له .. ولكن قبل أن يبلغ منصور باشا بالخبر يجب أن يبلغه أولا للسفارة البريطانية .. إنه لايقبل أن تصل معلوماته إلى السفارة عن طريق منصور فكرى .. يجب أن يحتفظ بعلاقته المباشرة بها .. وإلا فقد السفارة واستغنت عنه وأصبح كأنه خادم من خدم منصور فكرى ..

وذهب إلى شقته فى جاردن سيتى .. ورغم أن الساعة كانت قد جاوزت العاشرة فقد كان مصمما على أن يضفى على الخبر أهمية خاصة ، فرفع سماعة التليفون وطلب صديقه مستر مالوكولم ، وقال وهو يتعمد أن يضمن لهجته رنة الخطورة :

— آسف لإزعاجك .. ولكنى أعتقد أنه خبر هام ..

وروى الخبر لمالوكولم .. واطمأن سعيدا عندما فهم أن مالوكولم فوجىء به .. لم تكن السفارة البريطانية تعلم شيئا عن هذه الصفقة .. وقال له مالوكولم فى صوت تهزه المفاجأة :

— هل أنت متأكد مما تقول ..

وقال رفعت بلهجة يستر من خلالها فرحته :

— متأكد من كل كلمة ..

وقال مالوكولم فى حدة كأنه خرج عن هدوئه الذى عرف به :

– من أين جئت بهذه المعلومات ؟

وقال رفعت وهو ينبهه بثقته فى نفسه وفى ذكائه :

– من نفس مكتب برعى محمود ..

وقال مالوكولم وكأنه ساهم :

– سنرى ما يمكن عمله .. شكرا ..

ولاحقه رفعت قائلا قبل أن ينهى المكالمة :

– هل أبلغ الخبر لمنصور باشا .. إنه يهتم دائما بكل مايخص برعى ..

قالها رفعت كأنه يستأذن بوصفه رجل السفارة لارجل منصور فكرى .. وقال مالوكولم فى هدوء :

– أبلغه .. لاشك أنه سيكون له دور كبير فى هذه العملية .. أكرر شكرى .. وإلى اللقاء ..

ووضع رفعت سماعة التليفون ثم عاد بعد أن التقط أنفاسه ورفعها وأدار رقم منصور باشا فكرى ، رد عليه الخادم قائلا :

– إنه نائم ..

وقال رفعت فى حدة :

– أيقظه .. إنه موضوع هام .. قلت لك أيقظه ..

وترك الخادم سماعة التليفون وظل رفعت منتظرا فترة إلى أن سمع صوت منصور فكرى فقال له فورا دون أن يمهد بتحية المساء أو الاعتذار على إيقاظه :

– أريد أن أراك حالا .. الآن ..

وقال منصور باشا وهو يتثاءب :

– ألا تستطيع أن تنتظر حتى الصباح ..

وقال رفعت بسرعة :

– لولا أهمية الخبر لما تجرأت على إزعاجك فى مثل هذه الساعة ..

وقال منصور باشا فى ضيق :

– أى خبر .. لنتكلم فى التليفون ..

وقال رفعت كأنه يلومه :

– لا .. لا أستطيع أن أتكلم فى التليفون .. وأنت تعرف حال التليفونات ..

وقال منصور باشا كأنه استسلم رغم أنفه :

– تعال .. سأنتظرك ..

وكان رفعت يتعمد أن يزعج منصور باشا وأن يفرض على منصور باشا استقباله فى هذه الساعة حتى يضفى على الخبر أهميته

الخاصة .. إن تبادل الأسرار الخطيرة لايتم إلا فى الليل وفى الخفاء .. وهو ذكى لايتهاون فى أسراره ويفقدها قيمتها ..

واستقبله منصور باشا وهو متراخ يتعجل النوم ولكنه ما كاد يسمع الخبر حتى انتفض من المفاجأة فاستيقظ كله وانطلق بريق عينيه وهو يقول :

— لايمكن .. إن تسليح الجيش هى مهمة قاصرة علينا وحدنا ..

ويقصد أنها مهمة بريطانيا وحدها .. وأخذ يستزيد رفعت من معلوماته إلى أن قال فى حدة :

— هذه الصفقه لن تتم .. على جثتى .. وسأعلم برعى محمود كيف يلتزم حدوده .. إنه يحلم بعالم جديد وسأفيقه من أحلامه ..

وخرج رفعت من لديه وهو مستغرق فى التفكير حول العلاقات بين بريطانيا وأمريكا .. إنهما حليفتان ولم يكن يتصور أن العلاقة بين الحلفاء يمكن أن تصل إلى حد المعارك حتى لو كانت معارك تحتية .. على كل حال فان ما اكتشفه بين بريطانيا وأمريكا يفتح له مجالات جديدة واسعة للعمل .. وإن كان لايدرى بعد كيف يمكن أن يستفيد من هذه المجالات ..

وانتظر فى صمت وتباعد مايمكن أن يحدث .. ومر يوم وفى اليوم التالى بدأت الإشاعات عن أزمة وزارية تهدد باستقالة الوزارة

دون أن تصل الإشاعات إلى أسباب هذه الأزمة .. ومع الأيام لم تستقل الوزارة ولكن استقال وزير الحربية وحده .. أو عزل .. طرد .. وقامت حركة تغيير واسعة بين المسئولين داخل وخارج الوزارة ..

وعرف رفعت أن صفقة استيراد السلاح من أمريكا قد فشلت .. أغلقت فى وجهها كل الأبواب .. ولعل الأزمة وصلت إلى لندن وإلى واشنطن قبل أن تنتهى بالفشل .. وهو .. رفعت .. إنه صاحب الفضل فى القضاء على هذه الصفقة .. ولم ينتبه أى إحساس بلوم نفسه لأنه تسبب فى حرمان الجيش المصرى من أمداده بالأسلحة الأمريكية .. إنها أسلحة سواء كانت أمريكية أو بريطانية لايمكن أن تصل بالجيش المصرى إلى أكثر مما يريده له الحليفان .. وهما يريدان دائما أن يكون الجيش المصرى جيشا تابعا لهما أو لأحدهما .. وما جرى بينهما ليس أكثر من المعارك الطبيعية التى تجرى فى الأسواق .. الأسواق السياسية .. حتى فى أسواق الحلفاء ..

المهم ماذا سيخرج رفعت من هذه العملية ..

إنه يستحق مكافأة هائلة من بريطانيا .. إنه أنقذها سياسيا بالاحتفاظ بسيطرتها على مصر وأنقذها اقتصاديا بالاحتفاظ لها باحتكار توريد السلاح .. ولكنه كان من الذكاء بحيث لم يتقدم

بطلب مكافأة .. إنه يحتفظ بمظهر شخصيته حتى لايبدو كأنه شحاذ يشحذ ..

وذهب إلى لقاء مستر مالوكولم يحمل إليه أوراقا تحمل معلومات هامة سجلها على الآلة الكاتبة الانجليزية .. إنه يتعمد دائما أن يحمل إليه أخبارا هامة كلما كان يريد منه شيئا.. وبعد أن انتهى معه من تفاصيل المعلومات بذلاقة لسانه يتحدث عن حياة العمل فى شركات منصور باشا فكرى..وقاطعه مالوكولم فى بساطة وبراءة كأنه يتحدث كصديق لا كمسئول عن رشوته :

— هل وجدت العمل الذى تستطيع أن تتفرغ له ..

وقال رفعت فى بساطة أيضاً :

— الواقع أنى استفدت كثيرا من دراسة نواحى العمل فى شركات منصور باشا .. وقد بدأت أفكر فى الحصول على توكيل لإحدى الشركات الأجنبية .. وقد قدرت أن أختار أن أكون وكيلا فى مصر لسيارات موريس ..

وضحك مالوكولم قائلا :

— لماذا سيارات موريس .. إنها سيارات صغيرة وضعيفة ..

وقال رفعت باسما :

— ربما لهذا اخترتها .. فهى تدخل ضمن توكيلات شركات منصور باشا .. ولكن الدخل الذى تحققه للشركة تافه لايمكن أن

يؤثر فى ميزانية منصور باشا، ولذلك فكرت أن أستأذنه فى أن يكون التوكيل لى حتى أبدأ التجربة .. ولو أنى لم أبدأ المحاولة بعد فى انتظار أن أنتهى من تقدير مدى اهتمام منصور باشا بى وصداقته لى .. لم أحادثه فى الموضوع بعد ..

وقال مالوكولم وهو يربت على كتف رفعت كأنه يشفق عليه :

— حادثه .. وسأتصل به ..

وقد انتظر بعدها يومين لعل منصور باشا فكرى يستدعيه إلى مكتبه بعد أن يكون مالوكولم قد اتصل به . . ولكنه لم يستدعه حتى يسأله عن أخبار غريمه برعى بك محمود .. وقرر رفعت أن يطلب هو مقابلته ودخل إليه حاملا معلومات جديدة عن أخبار فشل صفقة توريد الأسلحة الأمريكية على برعى بك .. ليست معلومات هامة ولكنها بلا شك تفرح منصور باشا ..

وفرض رفعت حتى دعوته إلى الجلوس على مقعد .. ومنصور باشا يستمع إليه وقد علق على شفتيه ابتسامة باردة هى كل مايستطيع إعطاءه لرفعت اعترافا بفضله .. ثم قال له مقاطعا كأن المعلومات التى يسمعها منه لاتهمه :

— سمعت أنك تريد أن تحصل لنفسك على توكيل سيارات موريس ..

وقال رفعت وكأنه لايبالى :

– إنها مجرد فكرة خطرت لى ..

وقال منصور باشا كأنه ينهى الموضوع :

– انى موافق .. وسترسل إلى الشركة بتزكيتك وكيلا .. ولكنك فى حاجة إلى ضمان من البنك .. وأنا أعرف أنك لاتملك أى قوة فى أى بنك .. وأنا لن أضمنك ولن أكفلك .. ليست هذه من عادتى ولا من نظم شركاتى .. وسأتركك تعتمد على نفسك مادمت تريد أن تدخل تجربة جديدة ..

وخرج رفعت وهو حائر :

لقد كان يعتمد على أن يحصل على توكيل شركة السيارات من خلال شركة منصور باشا .. ولكن منصور باشا يتركه وحده .. كأنه يطرده .. فمن أين يأتى بالرصيد الذى يضمن له هذا التوكيل .. هل يؤلف شركة يضم إليها بعض الممولين ممن يعرفهم .. ولكن الممولون قد يستهيفون به ويعاملونه كشحاذ .. إنهم لايعلمون حقيقة قوته التى يعتمد عليها .. لايعلمون أنه من أقرب أصدقاء السفارة البريطانية .. ولن يصارحهم بحقيقته طبعا ..

وفى نفس المساء اتصل به مالوكولم فى التليفون وقال له بصوت مرح :

– لماذا لم تتصل بى .. إنى عرفت بشروط منصور باشا حتى يساعدك فى مشروعك .. اتصل بصديقنا مستر مايكل وكيل بنك باركليز وسيعد لك كل شىء ..

وارتفعت ضحكة مالوكولم وهو يستطرد قائلا :

– إنى أعرف أنك صديق لمايكل أو على الأصح صديق ابنته مجدولين وهى كل شىء بالنسبة لمايكل ..

وفرح رفعت بما سمعه واسترد معه آماله .. واتصل ساعتها بمجدولين .. أو ماجى كما أصبح يدللها .. ودهش عندما وجدها تعرف كل شىء وهى تؤكد له أن البنك سيضمن له توكيل سيارات موريس .. إن والدها أكد لها أن البنك موافق .. وقد قابل والدها فى اليوم التالى الذى استقبله بترحاب وقال له أن البنك سيكلفه بضمان البضائع التى يستوردها .. أى بضمان مايستلمه من سيارات موريس .. وتولت ماجى بنفسها بعد ذلك تحريك كل الأوراق حتى أصبحت العملية كلها فى يده ..

أصبح لأول مرة رجلا من رجال الأعمال ..

وقد كانت العملية صغيرة لم تحقق له إلا أرباحا بسيطة .. إن أفخم سيارة موريس لم تكن تباع فى مصر بأكثر من خمسمائة جنيه .. هكذا كانت أسعار السيارات أيامها .. ولم يكن يحقق فى كل سيارة ربحا أكثر من خمسين جنيها..ورغم ذلك فقد كانت فرحته

بهذه الأرباح أضعاف فرحته بما حققه بعد ذلك من أرباح الملايين ..

وكان الفضل كله لماجى ..

لماذا لايتزوجها ..

إنه لو تزوجها فسيصبح بنك بار كليز كله فى يده وهو فى حاجة الآن إلى بنك، بل إلى كل البنوك ماذام قد أصبح من رجال الأعمال ..

إلى أن فوجىء بالصدمة الكبرى ..

لقد قتلوا منصور باشا فكرى ..

اغتالوه فى وضح النهار ..

• •

وكان رفعت البيومى قد انتهى من تناول طعام العشاء وانتقل وجلس غاطسا فوق الأريكة فى البهو .. وقدم له البتلر كأس البرمنت .. كأس كحول النعناع الذى تعود أن يشربه بعد العشاء .. ورفع الكأس فى يده وشفتاه مزمومتان وهو يعيش ذكرى صدمته .. ذكرى اغتيال منصور باشا فكرى ...

(٤)

كان أشد ما صدم رفعت البيومى عندما سمع باغتيال منصور باشا فكرى هو وقع المفاجأة .. إنه يعلم أن منصور باشا يعتبر عدو الشعب رقم واحد منذ أن بدأ يعرف ويجاهر بأنه رجل الإنجليز رقم واحد .. ورغم ذلك فلم يكن ينتظر اغتياله، وكان يعتقد أنه فى تقدير الحركة الوطنية يعتبر رجلا مفضوحا تافها لاشخصية له ولايستطيع أن يؤثر تأثيرا فعليا على الحركة الوطنية .. والأهم أنه لايستطيع أن يكون زعيما أو رئيس حزب يمكنه أن يتولى قيادة الجماهير والاتجاه بهم فى طريق الخيانة الوطنية .. حتى بعد أن بدأ فى تكوين حزب سياسى لم يقترب منه إلا أفراد معروفون من أصحاب المصالح مع الإنجليز وليس لواحد منهم أى قيمة شعبية .. ولاحتى يستطيع واحد منهم أن يلقى خطابا فى تجمع جماهيرى مفتوح إنما إذا تكلم أحدهم فلا يتكلم إلا فى حفل رسمى حكومى تحت حماية

البوليس .. ورغم ذلك اغتيل منصور باشا فكرى .. والذى يحز فى نفسه أنه لم يحذر الإنجليز أو منصور باشا نفسه من هذا الاغتيال كما سبق أن حذرهم قبل وقوع كثير من الأحداث الهامة .. واغتيال منصور فكرى حدث هام ولاشك .. ومفاجأته بهذا الاغتيال لاشك تفقده قيمته عند أصدقائه الإنجليز وتهز ثقتهم به .. لم يعد الصديق الذى يمدهم بأهم وأصدق المعلومات .. وقال لنفسه فى غضب على نفسه أنه ربما بعد أن أصبح رجل أعمال ووكيلا لشركة أرستن فى مصر أهمل فى التفرغ لعمله الأساسى .. الرجل الذى يجمع المعلومات .. وقد أهمل فعلا .. إن اتصالاته بمصادر أخباره قد خفت واندماجه فى التحركات الوطنية على اختلاف اتجاهاتها قد فتر ..

ولكن ..

إذا كان قد عجز عن اكتشاف نية اغتيال منصور باشا فكرى فيجب أن يثبت ذكاءه وموهبته باكتشاف أسرار عملية الاغتيال .. وكان البوليس قد قبض على كل الأفراد الذين قاموا بالعملية .. إنهم كلهم من الشبان ولم يسبق له أن عرف أو التقى بواحد منهم رغم العشرات الذين يعرفهم من الشبان الوطنيين الفدائيين الذين يمكن أن يقدموا على قتل أعداء الوطن أو أعداء الحزب .. وقد قال هؤلاء الشبان فى التحقيق أنهم لاينتمون إلى أى حزب من الأحزاب ولا إلى أى تنظيم .. إنهم من الوطنيين المستقلين الأحرار .. لاشك أنهم

يكذبون .. وحتى لو كانوا فعلا من المستقلين الأحرار فان أى عملية تتم مفروض أن يكون وراءها محرض ومخطط ومنظم .. فمن هو أو من هى الجهة التى حرضت وخططت ونظمت لهؤلاء الشبان حتى قاموا باغتيال منصور باشا ..

وكان من أول ما أثار فكره أن كل هؤلاء الشبان ينتمون إلى الطبقة الراقية أو إلى مستوى قمة الطبقة المتوسطة .. إنهم من أولاد الذوات .. ليسوا من الطبقة الشعبية التى تتحمل مسئولية تنفيذ العمليات الوطنية أو الحزبية .. وربما لهذا لم يلتق بهم من قبل فقد كان يحصر تحركاته داخل الطبقة الشعبية .. وطبقة أولاد الذوات حتى لو كانوا من أعضاء الأحزاب يترفعون عن القيام بالعمليات الحزبية الشعبية .. إنهم يضعون أنفسهم داخل الأحزاب فى مستوى القيادات .. يكفى مجرد وجودهم فى انتظار أن يصل الحزب إلى الحكم فيصبح كل منهم وزيرا .. إن غرائزهم الأرستقراطية الرأسمالية المتعالية تتحكم فيهم بالنسبة لأى قضية وطنية .. بل إن له صديقا شابا من أولاد الذوات انضم إلى تنظيم شيوعى .. ربما لأن أفراد التنظيم أشبعوا فيه غريزة التعاظم والإحساس بأهمية نفسه ووجوده .. وكان هذا الشاب يملك إرثا عن أبيه أكثر من ألف فدان من الأراضى الزراعية الخصبة السخية .. وقد سأله مرة مدعيا البراءة .. هل توزع الأرض على الفلاحين أو على الأصح توزع عليهم دخل الأرض كما تفرض المبادىء الماركسية .. وثار ابن

الذوات الماركسى رافضا مجرد الفكرة، وبرر ثورته بأن توزيع توزع أرضه ليس من الأهداف الماركسية ويجب أن تبقى الأرض فى يده إلى أن يقتنع الشعب بأن الأرض لاتوزع عن طريق الإحسان أو البقشيش، أو لأن هناك صاحب أرض يريد توزيعها بل الأرض لاتوزع إلا بقيام ثورة ماركسية تستولى على كل أرض مصر .. وفى نفس الوقت كان معروفا عن هذا الماركسى ابن الذوات أنه من أبخل البخلاء ومن أعنف أصحاب الأرض فى محاسبة الفلاحين .. المبادىء مظاهر والانتماء الطبقى غريزة ..

فمن الذى حرض هؤلاء الشبان أولاد الذوات ونظم لهم وخطط عملية اغتيال منصور باشا ؟

واعتمادا على عبقرية ذكائه استطاع بسرعة أن يكتشف بذور الحقيقة .. ولكنه يجب أن يتأكد .. وتفرغ للوصول إلى أوسع المجالات التى يمكن أن يستقى منها المعلومات .. إلى أن تأكد ..

إن الذى حرض ونظم وخطط عملية اغتيال منصور باشا هو القصر الملكى .. وبعلم الملك فاروق نفسه .. وكان يعرف أن القصر قد أقام منذ سنوات تنظيما سريا أصبح يعرف بين التنظيمات باسم « الحرس الحديدى » .. وكان تنظيما يدعى التطرف الوطنى حتى يبرر تهديد كل الشخصيات الوطنية ، بل إن هذا التنظيم كان يعارض أحيانا تصرفات القصر الملكى حتى ينفى عن نفسه شبهة الانتماء إليه .. وكانت أغلبية أفراد هذا التنظيم — كما اكتشف

رفعت فيما بعد — ينتمون أيضاً إلى الطبقة الراقية أو المستوى الأعلى من الطبقة المتوسطة .. نفس الطبقة التى ينتمى إليها قتلة منصور باشا .. ولكن الواقع — كما اكتشفه رفعت — هو أن القتلة لم يكونوا من أفراد الحرس الحديدى .. ولكن قيادة الحرس عرفتهم بتهورهم واندفاعهم وهوايتهم لإطلاق النار تأثرا بأفلام السينما الأمريكية فسلط عليهم أحد أفراده الذى استطاع أن يدفعهم لقتل منصور فكرى .. وهم لم يقتلوه لأن الملك يريد قتله بل لمجرد أنه عميل إنجليزى خائن ومن أعداء الشعب .. إلى هذا الحد كانوا سذجا .. وطنيين لاسياسيين ..

ولكن .. لماذا كان فاروق يريد قتل منصور فكرى .. ربما لمجرد أنه يستغل علاقته بالإنجليز فى خدمة حزب الوفد متجاهلا القصر حتى يكاد يقضى على كل ما للقصر من قوة .

وجمع رفعت البيومى كل هذه المعلومات وزودها بأدق التفاصيل وسجلها فى صفحات متعددة كتبها بالآلة الكاتبة الانجليزية وقدمها إلى صديقه مالوكولم ممثل السفارة البريطانية ..

وربما كانت السفارة البريطانيه تتجه إلى نفس الاتجاه الذى يرمى إلى اتهام القصر بقتل منصور باشا .. ولكن هذا الاتجاه تأكد بالمعلومات التى قدمها رفعت .. ثم تأكد أكثر بسير محاكمة المتهمين فقد استطاعوا بنفوذ القصر أن يهربوا كلهم دون أن ينال أى منهم

أى حكم .. حتى رجال القصر أنفسهم كانوا يدافعون عنهم فى أحاديثهم وإجراءاتهم .. ولم تبد أى محاولة للثأر لمقتل منصور باشا بتتبع قاتليه .. إن منصور باشا لم يكن له حزب .. ولا صديق .. كل من عرفوه كانوا يعرفون الإنجليز .. لايهم منصور إنما يهمهم الإنجليز ..

ولكن بريطانيا هى التى قررت الثأر لاغتيال منصور فكرى ..

من يومها لم يستطع الملك فاروق أن يحكم .. وكان لا يستطيع أن يقيم وزارة تحكم . كل شهر أو شهرين يبحث عن وزارة جديدة. وربما كان السبب هو جهل فاروق نفسه وتفاهة وانحطاط شخصيته ولكن السبب الأول والأهم هو الإنجليز كانوا قد قرروا الاستغناء عنه ..

ويضحك رفعت البيومى سعيدا متباهيا بنفسه .. لقد كان السبب فى القضاء على فاروق..ولو أنه لم يكن يعرف شيئا عن الثورة...ولا الانجليز أيضا كانوا يعرفون ..

وقد كان مقتل منصور باشا هو نقطة التحول الكبيرة فى مستقبل وشخصية رفعت البيومى .. لقد ارتفع مدى اعتماد الإنجليز عليه .. بل إنه فى الواقع حل محل منصور فكرى فى الاعتماد عليه .. أصبح واقعيا رجل الإنجليز الأول .. ولكن ذكاءه كان قد تزود من تفاصيل حياة منصور فكرى .. إنه لن يكون أبدا مثله حتى لو تحمل كل مسئولياته ..

وكان الدرس الأول الذى تعلمه هو ألا يعرف عنه أبدا أنه رجل الإنجليز رقم واحد وإلا أصبح عدو الشعب رقم واحد وقتلوه كما قتلوا منصور فكرى .. وهو منذ البداية وهو يراعى إخفاء كل علاقاته بالإنجليز حرصا على علاقاته بالوطنيين .. وهو الآن بعد أن أصبح من رجال الأعمال فى حاجة أن يبذل مجهودا أكبر فى إخفاء نفسه ، فقد أصبح فى حاجة إلى شخصيته الإنجليزيه ليتعامل فى مجال الأعمال ولكنه أيضا فى حاجة إلى إخفاء هذه الشخصية حرصا على مكانته السياسية الوطنية وحماية نفسه .. والإنجليز أنفسهم يجب أن يعدلوا من معرفتهم منه وتقديرهم لشخصيته .. يجب أن يفهموا أنه ليس عميلا ولا جاسوسا ولكن يعاملونه على أنه صديق لهم .. وفرق كبير فى المعاملات الدبلوماسية بين العميل والصديق .. إن العميل أو الجاسوس موظف عندهم يتقاضى راتبا محددا عن خدماته. أما الصديق فليس موظفا لديهم .. إنه مجرد صديق حر يسعون وراءه أكثر من أن يسعى وراءهم .. ثم إنه لا يتقاضى منهم راتبا أو أتعابا تقدم له فى أظرف مغلقه تضم جنيهات .. بل يتقاضى منهم خدمات وتسهيلات للأعمال التى يقوم بها .. أى أنه لم يعد مضطرا مثلا إلى أن يكتب معلومات على الآلة الكاتبة ويقدمها إلى صديقه مالوكولم .. يكفى أن يجتمع به كصديق ويتحدثا حديث الأصدقاء ويضمن حديثه كل معلوماته..وعلى مالوكولم أن يستفيد من هذه المعلومات دون أن يقدمها له فى ورقة مكتوبة.. وقد اقتنع أصدقاؤه

باتجاهه الجديد .. فهموه .. إن كثيرا من العملاء يتطورون ويصرون على أن يرتفعوا إلى درجة الأصدقاء ..

وكان الدرس الثانى الذى تعلمه هو ألا يتخذ أبدا موقفا سياسيا محددا معلنا يعرف به .. يجب أن يتجنب أن ينسب نفسه أو ينسبه الناس إلى جهة معينة فى مجالات السياسة الداخلية .. أى ألا ينسب إلى القصر .. أو إلى حزب من الأحزاب .. أو إلى أى تنظيم من التنظيمات .. كما هو حريص ألا ينسب إلى الإنجليز أو الأمريكان .. وإلا قتل كما قتل منصور باشا الذى قتله القصر لأنه كان مرتبطا بحزب الوفد .. يجب إن يكون على اتصال بكل الأحزاب وكل الهيئات ويترك كل هيئة تعتقد أنه أحد رجالها حتى وإن لم يقبل أن يكون فردا من أفراد التنظيم التابع لها .. ولذلك ظل حتى بعد أن أصبح شخصية كبيرة معروفة يرفض أى منحة تحاول إحدى الجهات أن تسبغها عليه .. رفض رتبة البكوية التى حاول رجال القصر أن يكسبوه بها. ورفض أن يكون وزيرا رغم أن أكثر من حزب عرض عليه الوزارة .. لايريد أن يكون أو أن يعرف بأكثر من أنه رجل أعمال ..

وقد اتسعت أعماله وامتدت بشكل عجيب وبسرعة مدهشة .. وكان الإنجليز قد اعتبروه فعلا خليفة منصور باشا فكرى بل إنه أخذ فعلا كثيرا من التوكيلات الخارجية التى كانت لمنصور فكرى . توكيلات الاستيراد علاوة على السيطرة على كثير من المنشآت ..

كانت أى مناقصة لمشروع حكومى يتقدم بها ترسو عليه .. وقد تحمل بذلك عداء كثير من رجال الأعمال من مقاولى المشروعات الحكومية .. ولكنه لم يهتم بهم .. ليس لهم قوة شعبية أو رسمية يستطيعون أن يحاربوه بها ..

وفى الوقت نفسه وخلال اتساع أعماله بدأ يكون تنظيما داخل شركاته وأعماله لجمع المعلومات .. كل أنواع المعلومات .. إنها فكرة أخذها أيضا من منصور باشا فكرى رحمه الله .. إنه هو نفسه عين فى مكتب منصور باشا كرجل معلومات وبتوصية من السفارة .. ولكنه لن يكون كمنصور باشا .. لن يترك للسفارة حق وضع رجالها فى شركاته كما سبق أن وضعته هو .. إنه يريد أن يحتفظ باستقلاله حتى يستطيع أن يحمى نفسه .. كثير من الملابسات والظروف التى يقدرها فى رسم حياته لا يقدرها ولا يفهمها الإنجليز فيجب أن يحتفظ باستقلاله فى كل ما يخصه .. ولا شك أن الإنجليز سيفهمونه ويقدرونه .. وعندما اتصل به مالوكولم وطلب منه لأول مرة تعيين شخص — نسى اسمه — موظفا فى شركته اعتذر .. رفض .. وفى لقاء خاص مع مالوكولم أقنعه بألا تحاول السفارة فرض أى موظف عليه ، وهو كفيل بأن يجمع الموظفين الذين يمدونه ويمدون السفارة بالمعلومات .. واقتنع مالوكولم بسرعة .. إن الإنجليز يأخذون كل عميل أو صديق بعقليته ويستسلمون لهذه

العقلية مادامو يستفيدون منه حتى إذا انتهى ما يستفيدونه منه تخلوا وطردوه من دنياهم هو وعقليته ..

وقد بدأ رفعت البيومى يكون التنظيم الخاص به معتمدا على ذكاء مدهش .. إنه يختار أفراد التنظيم من الشبان المعروفين بتطرفهم الوطنى أو بتاريخهم الوطنى .. الشبان الذى عرفهم وصادقهم منذ أيام حى الدراسة وحى الظاهر ومن خلال التجمعات الحزبيه التى يتردد عليها ، وبعضهم كان يعرف أنهم من أفراد التنظيمات السرية التى تقوم بالعمليات الوطنية العنيفة بما فيها عمليات الاغتيال .. إن معظم هؤلاء الشبان انتهوا من دراستهم ولم يصلوا إلى شىء إلا أن يكونوا من صغار الموظفين .. وكان كلما تعمد لقاء واحد منهم قال له فى تواضع .. أن الله من عليه وأصبح يدير أعمالا واسعة وأنه يعرض عليه أن يشترك معه فى العمل استمرارا لصداقتهما .. ثم يقول فى حماس كأنه يلقى خطابا وطنيا .. إن الأعمال مهما اتسعت لايمكن أن تعفينا من مسئوليتنا الوطنية .. مهما أخذت الأعمال من جهدنا فلا يمكن أن تنسينا مايجرى فى البلد .. لايمكن أن تشغلنا عن كل كبيرة وصغيرة من أحداث الوطن .. إنى لايمكن أن أرضى لنفسى أن أنسى أو أتجاهل بلدى متفرغا للتجارة والتصدير والاستيراد والأعمال حتى لو انتهى بى ما أوديه من واجب نحو بلدى إلى الافلاس .. لقد ولدت مفلسا وأتحمل أن أعود مفلسا ولكنى لا أتحمل أن أتجاهل بلدى أو يكون فى جيبى قرش بينما بلدى مفلسة وطنيا وسياسيا ..

مفلسة فى العدالة وفى حق الحياة الحرة الشريفه .. وبصراحه لقد اخترتك لتعمل معى لأنى لا أنسى أبدا تاريخك الوطنى ولأنى واثق أن روحك الوطنيه ومسئوليتك الوطنية لن تخفت أبدا ..

وكان يقول مثل هذا الكلام لكل من يتعمد لقاءه ثم يعرض عليه مرتبا مغريا لا يبالغ فيه حتى لايثير شكوكه .. يكفى أن يكون ضعف المرتب الحكومى المعروف .. وقد استطاع أن يجمع فى مكاتبه كثيرا من هؤلاء الموظفين وعلى مختلف الأنواع .. شبان كانوا من حزب الوفد .. أو كانوا من الإخوان المسلمين .. أو كانوا من التنظيمات السرية ، بل إنه استطاع أن يجمع حوله بعض ضباط الجيش .. إنه يعرف أن الجيش أصبح يضم أكثر من تنظيم سياسى وطنى .. ولا يستطيع أن يقدر قوة وقيمة كل تنظيم وإن كانت كلها تنظيمات تدعو إلى الثورة ، ومن الأفضل أن يكون على صلة بها جميعا دون أن يدفع أحدهما على الآخر .. ولم يكن يعرض على الضباط وظائف فى شركاته .. إن قيمتهم لديه فى وجودهم داخل الجيش .. ولكن هناك كثير من الخدمات البسيطة يقدمها لكل من يطمع فى خدمة .. كأن يخفض ثمن سيارة يبيعها له .. أو يعطيه قطعة قماش من القماش الذى يستورده هدية له .. أو يدعوه على العشاء فى السهرات المتباعدة التى كان يقيمها للشبان الوطنيين .. وكانوا كلهم على اختلاف اتجاهاتهم يتعمدون ويبذلون جهدا صادقا فى جمع المعلومات السياسية والوطنية .. لقد عرفوا

ان ارضاء صاحب العمل لا يكون إلا بامدادهم بالمعلومات الوطنية.. لأنه رجل وطنى .. ولا يشكون أبدا فى نياته أو فيما يفعل بهذه والمعلمات التى يمدونه بها .. وهم فى الوقت نفسه فى حاجة إلى ارضائه .. أكل عيش ..

وقد زودته هذه المعلومات بقوة هائلة يفرض بها شخصيته ومطالبه على السفارة البريطانية خصوصا وأن الحالة فى مصر كانت قلقه وكل ما فيها متوتر بعد أن قرر الانجليز التخلى عن الملك فاروق وتركوه دون أن يقدموا على حمايته ودون أيضا أن يخططوا لما يمكن ان يحدث لمصر من بعده..

وفى تلك الأيام التى كان يخطط فيها رفعت البيومى مجده كانت قد بدأت تلح عليه فكرة لاتريد ان تفارق ذكاؤه ..

كان يفكر فى مصيره مع برعى بك محمود الذى يقال عنه انه رجل أمريكا الأول فى مصر ..

لقد كان منصور باشا يكره برعى بك ويعاديه معاداة علنيه ويحقد عليه أو على الأصح يغار منه .. وكان يقال عنه أنه أخطر شخصية على مستقبل مصر .. ربما كان منصور باشا يقصد انه أخطر شخصية على مستقبل الانجليز فى مصر ...

ولكن لماذا يعادى هو برعى بك محمود ؟ واذا كان يعتبر رجل أمريكا فى مصر فان بين أمريكا وبريطانيا تحالفا عالميا قويا كاملا..

واذا كان بينهما خلافات أو معارك فهى مجرد معارك تنفيذية سطحية فى استغلال كل منهم لقوة وجوده .. معارك مفروضة كمعارك أكل العيش بين الأفراد .. وحتى لو اشتدت المعارك الى حد أن قضت أمريكا على الامبراطورية البريطانية أو على الأقل افقدتها سيطرتها على العالم ، فان بريطانيا حتى بعد هذا ستبقى فى تحالف مع أمريكا.. ستبقى معها فى جبهة واحدة وخط واحد ..

فلماذا لا يحاول رفعت بيومى باعتباره رجل السفارة البريطانية أن يقيم تحالفا مع برعى محمود تحقيقا لصورة التحالف بين أمريكا وبريطانيا .. حتى لو استمرت المعارك بينهما فى تحقيق الصفقات وفرض النفوذ .. ليست معارك ولكنها نوع من التنافس بين دكانين من الدكاكين السياسية والتجارية المشروعة .. وكان رفعت البيومى ودكان برعى محمود ..

وانتهز رفعت فرصة التقاؤه ببرعى فى احدى الحفلات العامة وقدم له نفسه .. واستقبله برعى فى بساطه وبعينين ثاقبتين وابتسامة أقرب الى الاستهانة كأنه يعرفه من زمن طويل .. يعرف كل شىء عنه .. ولم يهتم رفعت بما عبر عنه لقاء برعى .. لا يهم .. كل منهما يعرف عن الآخر كل شىء ..

وقد انبهر رفعت بشخصية برعى منذ التقى به .. انه ليس من جيل المرحوم منصور باشا فكرى .. انه اصغر سنا ويعتبر من قادة

الجيل الذى بدأ يؤمن بأمريكا منذ انتهاء الحرب العالمية .. وهو يبدو لا يكبر رفعت بأكثر من عشر سنوات وان كان بريق عينيه وضحكته المستمرة التى يغطى بها اسئلته وكلماته تجعله يبدو كأنه فى سن رفعت .. وبرعى يعرف عنه انه لا يخفى نوازع شبابه .. أن مغامراته مع النساء يعلنها كأنه يتباهى بها .. ثم أنه يهوى المظاهر .. لقد قبل رتبة البكويه التى منحها له القصر ، وقبل أن يكون عضوا فى مجلس النواب بنفوذ حزب لاينتمى اليه وكل ذلك نظير خدمات .. وهو فى الوقت نفسه نشيطا نشاطا كاسحا .. نشاط أمريكى لايخضع للتقاليد المحتشمه المتعالية الكسولة التى تفرضها الطبيعة الانجليزية .. ولكنه من ذكائه لا ينسب نفسه لأمريكا رغم كل ما يقال عنه .. أنه يتعمد أحيانا أن يهاجم أمريكا ويدعى أن اعجابه بها محصور فى قوتها الاقتصادية لا السياسية ..

واستطاع رفعت أن يستغل لقاءه ببرعى ويعدد لقائه به .. وكان يجد دائما مبررا لطلب أى لقاء وكان حريصا أن يردد أمامه أنه يعتبره أستاذه وأنه يتمنى أن يتلقى منه الدروس والنصائح دون أن يتعمد أن يدور بينهما حديث عن السياسة أو عن اتجاه بريطانى أو أمريكى .. الحديث كله دائما عن العمليات .. وفى عينى برعى دائما هذه النظرة الناقدة الى رفعت وهذه الابتسامة كأنه يستهين به .. وبرعى لايهتم .. يكفى أنه يستطيع أن يصل اليه ..

ووصل رفعت إلى حد أن عرض مشروعا يشترك فيه مع برعى .. أن برعى اشترى أو استولى على مساحة واسعة من الأرض تبلغ آلاف الأفدنة ليقيم عليها مشروع زراعى ضخم .. سيحتكر قوة القطن والقمح اللذان يتحكمان فى حياة مصر .. وذهب اليه رفعت وقال له أن وكيل أكبر شركة للآلات الزراعية فى بريطانيا وأنه مستعد أن يورد له كل ما يحتاجه من آلات .. وذلك نظير أن يكون شريكا معه فى المشروع واذا رفض الشركة فهو مستعد أن يسلمه الآلات بثمن مخفض جدا وهو واثق أن عدد الآلات التى يحتاج اليها المشروع ستعوضه عن قيمة التخفيض ..

وضحك برعى ضحكته التى تعبر عن الاستهانة وقال :

— لست فى حاجه إلى شريك .. ان الشركة لن تخدمك إلى مدى تصورك ..

وفهم رفعت أنه يقصد أن الشركة لن تكون فى خدمة الاغراض البريطانية التى يعرف برعى أنه يمثلها أو يعبر عنها ، ورغم ذلك أخذ يغريه بأن يشترى منه الآلات أى أن يكون متعهد امداد الشركة بكل ما تحتاجه من آلات ..

واستطاع فعلا أن يقنع برعى ..

ووضع أول أسس التحالف بينهما ..

التحالف بين بريطانيا وأمريكا ..

واستمر هذا التحالف طويلا .. تحالف ينبض بأعنف ما يصل اليه الذكاء .. ينبض بالكراهية والحقد ويكاد ينبض بالدم ..

* * *

ورفع رفعت البيومى كأس البيرمنت إلى شفتيه ورشف رشفة صغيرة ثم علت شفتيه ابتسامة رقيقة مهذبة .. لقد عادت به ذكرياته فجأة الى مجدولين ..

أنه لا يستطيع أبدا أن ينسى مجدولين ..

لاشك أنها ساهمت فى بناء شخصيته التى نجح بها .. وكانت دون أن تتعمد تكاد تكون استاذته .. معلمته .. تعلمه كيف يفكر بأسلوب جديد .. الاسلوب الانجليزى العالمى .. وتعلمه كيف يعيش ويعاشر مجتمع جديد لم يكن يخطر على باله انه سيعيش فيه .. مجتمع يفرض تقاليده ويتعالى بها كأنه مجتمع يعيش فى السماء فوق البشر .. وهو يذكر انها تسللت داخل هذا المجتمع حتى وصلت به الى نادى الجزيرة الذى كان أيامها محرما على المصريين .. لا يدخله الا طبقة كبار الموظفين الانجليز وأفراد العائلة الحاكمة .. العائلة الملكية .. انه ناد أقامه الانجليز وسمحوا للعائلة الملكية بالدخول تأففا ولمجرد الاحتفاظ بالمظاهر الانجليزية .. وقد أصبح هو يدخل نادى الجزيرة كأنه من العائلة الحاكمة .. عائلة كفر البطيخ .. بل أن مجدولين

علمته فى نادي الجزيره لعبة الجولف .. وقد تشبث بلعبة الجولف وتعمد أن يبذل مجهودا كبيرا ليتعلمها .. لا لأن الرياضة فى طبيعته .. أبدا .. انه لم يكن يثير انتباهه أو يحرك احساسه شيء يسمى الرياضه .. حتى وهو صغير لم يكن يلعب أبدا مع الصغار الكرة الشراب أو عسكر وحرامية أو استغماية .. ولكن الجولف شيء آخر .. انه لعبه أولاد الذوات .. لعبة الحكام .. ولم يكن يعلم أن كثير من الصفقات الضخمة وكثير من الاتفاقات السياسية تتم خلال المشوار الطويل الذى يقطعه اللاعبون فوق حشائش وبين أشجار أرض الجولف .. وهو إلى الآن يلعب الجولف .. وفى مواعيد محددة لا تتغير أبدا كما هى عاده الانجليز .. يلعب ثلاثه أيام فى الأسبوع .. ويبدأ اللعب فى الساعة الثامنة صباحا حتى العاشرة .. وقد استفاد كثيرا من الجولف .. كثير من الأصدقاء وكثير من الأعمال والصفقات وان كان لم يتفوق أبدا كلاعب جولف ..

ومجدولين هى التى غرزت فيه ذوقه ومذاجه بالنسبة لكل تفاصيله .. وهو عندما يتجول بعينيه فى أنحاء بيته يحس بمجدولين .. ان هذا الذوق فى اختيار قطع الأثاث ونثر التحف وتعليق اللوحات هو ذوق مجدولين .. الذوق الانجليزى .. وهى نفسها التى قامت بتأثيث أول بيت كان لهما .. شقة جاردن سيتى .. ولكنه هو نفسه الذى أثث الشقه التى أصبحت له .. الشقة المطلة على النيل .. نفس الذوق بتفاصيل أوسع وأغلى .. الذوق الانجليزى .. ذوق مجدولين ..

بل أن الخدم الذين يعملون فى البيت .. كلهم على الطراز الانجليزى ..
كان لا يمكن ان يضع فى بيته نظام البتلر كبير الخدم إلا إذا كان
قد تأثر بمجدولين .. بل حتى أصناف الطعام التى تعودها .. كلها
أصناف انجليزية .. ولم يعد يستطيع أن يعيش دون تناول شاى
الساعة الخامسة ..

وقد عرف بمجدولين وسط هذا المجتمع الانجليزى المصرى ..
هو الذى عرف بها وليست هى التى عرفت به .. انها انجليزية وهى
إبنة وكيل بنك باركليز فهى الأهم .. وربما كان الكثيرون يحسدونه
على علاقته بها رغم أنها ليست جميلة .. بل أن قيمتها لا تقاس بأنها
امرأه .. انها انجليزية ابنة وكيل باركليز .. وربما لم يكن البنات
الانجليزيات يحسدن مجدولين عليه .. فهو ليس وسيما وقصير القامة
ولا يمتاز بمظهر الفحولة والاثارة الذى يمتاز به كثير من الرجال
المصريين .. انه مجرد شاب عادى من مئات الشباب الذين يقدمون
انفسهم خدما للانجليز .. وقد كانت مجدولين تعطيه الكثير .. كانت
معه كل يوم تقريبا .. وكانت تحمل مسئولية بيته .. وكانت تساعده
فى كل عمل تستطيع أن تساعده فيه .. ولكنها كانت تمتاز بأنها
واقعية عملية .. لقد وضعت خطاطا محدده لعلاقته بها لا تخرج عنها ..
لا تعطيه أكثر ولا أقل .. وهى كما عودته لم تكن تثير موضوع
الزواج .. كأنها لا تريده .. ولكنها تتركه يأمل فى زواجها وتتركه
الفكره تنطلق كلما راودته .. أى أنها ليست فتاة عاطفية تتهور وراء

عواطفها .. أنها لا تحب هذا الحب الذى يسمع عنه .. ولكنها
واقعية .. تعطى لأنها تريد أن تأخذ .. انه هو أيضا لا يحب هذا
الحب .. انه أيضا صاحب فكر واقعى .. يعطى لأنه يأخذ .. وربما
كانت هذه الوحدة فى الفكر التى جمعت بينهما كل هذه السنوات ..
الى أن قتل منصور باشا فكرى ..

وقرر رفعت البيومى أن يعدل عن كل ما يشبه بمنصور باشا ..
أن منصور باشا كان يجاهر بأنه انجليزى فيجب أن يخفى هو كل
مظاهر صداقته بالانجليز .. ومنصور باشا كان متزوجا من انجليزية..
أن الزواج من انجليزيات يبرز ويؤكد الشخصية الانجليزية على الرجل
المصرى .. ورفعت لن يتزوج من انجليزية .. لن يتزوج من مجدولين
.. وعدل نهائيا عن التفكير فى الزواج بها .. بل أنه يجب أن يبتعد
عن شخصيتها .. الشخصية الانجليزية .. واذا كانت علاقته بها
معروفة فى المجتمع العالى فان الكلام يمكن أن يصل الى الطبقة
الشعبية .. ولن يقال أنه يحبها أو أنها تحبه بل سيقال أنه خائن يسعى
إلى الانجليز ويستغله الانجليز .. أن مجدولين هى الوسام الانجليزى
الذى يضعه على صدره ويفضحه أمام الناس .. ويجب أن يخلع هذا
الوسام .. وبدأ يتباعد فعلا عن مجدولين .. وهو تباعد لم يكلفه شيئا
فقد استقبلت مجدولين تباعده فى برود .. وقد قال لها يوما :
— أن منصور باشا قتل لأنه كان معروفا بأنه أقرب أصدقاء
الانجليز ..

وقالت فى بساطة :

— أعرف .. وهو ما أثار لندن ..

وقال رفعت وهو يبتسم كأنه يتحسر :

— وكان معروفا أنه متزوج من انجليزية .. أن الناس فى مصر يعتبرون الزواج كأنه قضية وطنية ..

وقالت مجدولين ضاحكة :

— لا تتزوج من انجليزية .. حتى لا تقتل .. قد يقتلك المصريون أو الانجليز .. فالانجليز أيضا يعتبرون الزواج قضيه وطنية ..

وبدأت مجدولين تتباعد هى الأخرى .. فى برود .. ولكن صداقتهما لم تنقطع . أنهما يتحدثان فى التليفون بين كل وقت وآخر . وترسل له الدعوات بانتظام كما تعودت وأن كان قد أصبح يدقق فى اختيار الدعوة التى يلبيها .. بل أنه كان يعانى أحيانا الحرمان .. أن مجدولين هى المرأة الوحيده التى دخلت حياته حتى اليوم .. دخلت فراشه ودخل فى جسدها .. فكان يدعوها إلى البيت فى ليالى متباعدة .. وتلبى الدعوة فى بساطة .. انها تعلم انه محروم ويريد التخفيف من حرمانه وهى أيضا محرومة وان كان حرمانها لا يلح عليها كما يلح عليه .. انها أقوى فى برودها .. وما بينهما صداقة تحتمل كل شيء .. وهى صداقة تعيش حتى اليوم .. وكلما سافر إلى لندن التقى بها .. لقد أصبحت عجوزا ولم تتزوج بعد .. وهو

يحس حتى اليوم كلما التقى بها أنها استاذته .. صاحبة الفضل فى تكوين شخصيته .. ويستفيد من دروسها وذوقها حتى فى شراء قطعة جديدة من لندن يضعها فى بيته ..

وأيامها . وفى أوقات فراغه . بدأ يفكر . لماذا يكتفى بمجدولين ويحصر نفسه فى تعوده على جسدها .. لماذا لا ينطلق فى اشباع فحولته . لقد وصل إلى مركز وثراء يكفيه ليصل الى كثير من النساء حتى لو كان من هذا النوع من النساء .. ان برعى محمود معروف بمغامراته النسائية ورغم ذلك فمغامراته لا تؤثر فى مركزه أو فى سمعته. وربما لأنه يؤكد وطنيته بحصر مغامراته بين النساء المصريات .. فلماذا لا يغار هو الأخر ليحرر نفسه من الحرمان ..

وكان لديه موظف فى الشركة قريبا فى عمله منه .. لاشك أنه كان موظفا كفؤ .. ولكن عيبه أنه كان يقدم زوجته فى كل مناسبة وأحيانا فى مناسبات لا تفرض عليه تقديمها .. ولا شك أن زوجته خيرية كانت مثيره وكانت تتباهى بأنها مثيرة وتبدو كأنها تتعمد إثارة كل الرجال . لقد كانت تتعمد اثارته هو شخصيا فى كل مناسبة يلتقيان فيها .. وكان يترفع على هذه الاثارة ويتعمد الابتعاد عنها وهو يبدى سخطه وقرفه .. ولكن لماذا يتعالى .. لماذا لايحاول ويجرب .. وفى حفل من حفلات المناسبات التى تقيمها الشركة تقدمت مع زوجها لتحييه وهمت أن تبتعد بسرعة بعد أن كانت

قد يئست منه ولكنه استوقفها وأخذ يتحدث معها ومع زوجها .. وشمل الحديث آخر ما ظهر من قطع الأثاث فى السوق وقال ضاحكا :

– انى أدعوك لمشاهده بيتى حتى تعرفى ذوقى ..

وحدد لها موعدا .. وكان يحادثها ويجانبها زوجها .. وكان يشترك فى الحديث وسمع الدعوة وسمع تحديد الموعد ..

وكان ينتظرها فى بيته هى وزوجها وهو يخطط لتحديد موعد آخر لها وحدها .. يجب أن يبدأ بريئا حتى يتأكد من أنه يستطيع أن يخرج عن براءته ..

واذا بها تأتى وحدها ..

وسأل فى دهشة :

– أين زوجك ؟

وقالت ضاحكه :

– لقد فهمنا ان الدعوة لى وحدى .. ثم أنه لا يفهم فى قطع الأثاث ..

وأخذها ليلتها فى فراشه .. أول امرأه يأخذها بعد مجدولين .. والفارق كبير .. ان المصرية تختلف فى كل خلجة عن الانجليزيه .. وأشهى وألذ ..

ولم يحس بحرج عندما التقى بزوجها فى مكتب الشركة فى اليوم التالى .. وكان الزوج هو الذى طلب مقابلته ليعرض موضوعا تافها

لم يتعود أن يعرض مثله .. ربما أصبح هذا الزوج صاحب حق عليه .. وهو فعلا أصبح أكثر جرأة فى التحدث اليه وان كان لم يشر بكلمة من قريب أو بعيد تشير بأنه ترك زوجته تزوره فى الليلة السابقة .. لا يهم .. يجب أن يعود نفسه على التعامل مع هذه الشخصيات .. مثل هؤلاء الأزواج ..

وقد تعود فعلا .. بل تزاحمت علاقته ومغامراته كأنه دخل عالما جديدا كان خافيا عنه .. عالم التحرر من الحرمان .. وعرف عنه أنه عين كثير من النساء والبنات فى مكاتب الشركة .. كل من عينها مرت به .. بل أنه أصبح خبيرا فى معاملات الزوجات فى المجتمع .. سواء المجتمع الراقى الذى أصبح يضمه أو المجتمع الشعبى الذى لايزال متصلا به .. أن له نظرة ثاقبة يستطيع أن يفرق بها بين الزوجه التى يمكن الوصول اليها فيحاول الوصول ، والزوجة لايمكن ان يصل اليها أحد فلا يحاول بل يحتفظ أمامها بالشخصية الهادئة البريئة الملتزمة فى الحفاظ على الشرف فيكسب تقديرها له ..

لاشك أنه أصبح متفوقا على برعى بك محمود فى هذا العالم الواسع ..

• • •

إلى أن فوجىء رفعت ذات صباح بخبر ثورة ٢٣ يوليه ..

لقد كان يعرف أن مصر فى حالة غليان ولكن لم يكن ينتظر مثل هذه الثورة ولا فى هذا التاريخ .. كان كل ما ينتظره ثورة

شوارع تهدد الملك فاروق حتى يفيق لنفسه أو تطيح به وتضع مكانه ملكا آخر .. كما حدث فى التاريخ القريب .. وهكذا كان يعتقد الانجليز وما كانوا يسعون إلى تحقيقه . بل أن هذه الثورة رغم أنها لم تكن مجرد ثورة شوارع قد بدأت مما كان يتصوره الانجليز .. عزلت فاروق ووضعت مكانه ابنه فى رعاية مجلس وصاية ..

وكان يومها محتارا .. واتصل ببعض من يعرفهم ليتزود بالمعلومات ، ثم اتصل ببرعى بك محمود فى نفس الصباح وقال وهو يضغط على صوته حتى لا يرتعش :

— هل علمت ..

وسمع صوت برعى يقول فى فرحة وكأنه يزغرد :

— لم تكن مفاجأه .. سنتحدث فيما بعد ..

وألقى برعى بسماعة التليفون فى وجهه ، ورفعت يزداد حيرة :

ماذا يعنى برعى عندما قال أنها لم تكن مفاجأه ؟ !

هل كان يعرف عن هذه الثورة قبل أن تقوم ؟ !

هل كان الأمريكان يعرفون ؟ !

هل هى ثورة لحساب أمريكا ؟ !

(٥)

ظل رفعت البيومى حائرا فى تحديد مفهومه للثورة وتحديد وضعه منها شهورا طويلة .. وكان أهم ما يشغله هو تحديد موقف أمريكا منها .. هل كانت أمريكا تعلم مقدما بهذه الثورة واشتركت فى إعدادها بطرقها الخاصة .. ولم تكن أمريكا هى التى تهمه بل كان ما يهمه أولا هو صديقه اللدود برعى بك محمود رجل أمريكا فى مصر .. ولو كانت أمريكا هى التى صنعت هذه الثوره فان برعى يصبح الحاكم بأمره ويستطيع أن يطيح به ويخرب بيته بهزة من أصبعه .. يستطيع أن يطرده كما تحاول أمريكا أن تطرد بريطانيا من مصر .. المعلومات التى تصل تؤكد أن برعى فى حالة تقارب أوسع مع رجال الثوره .. بل انه سمع أنه ومنذ الأسابيع الأولى بدأ يعد لصفقة ضخمة لاستيراد القمح من أمريكا ولا يمكن أن تتم هذه الصفقة الا اذا كان

يعمل مع رجال الثورة واستطاع أن يطويهم فى جيبه .. لاشك أن أمريكا تؤيد هذه الثورة ..

ولكن المعلومات التى تصله لم تعد كافية .. ان المصادر التى كان يعتمد عليها أصبحت أعجز من أن تصل الى أعماق الأحداث .. الشبان الوطنيون الثوريون .. رجال الأحزاب .. رجال القصر .. كل هؤلاء لم تعد الدفة فى يدهم .. دفة الحكم ودفة التصرف فى مصير مصر .. رغم أنهم كانوا لايزالون فى أوائل الثورة محتفظين بقيمهم وبوجودهم .. بل أن المعلومات التى كانت تصله لم تعد تثير أصدقاءه الانجليز عندما كان يقدمها لهم . حتى التفاصيل التى كان يحصل عليها عن تولى قيادة الثورة العمليات الثورية التى تقوم ضد القوات البريطانية المتمركزة على ضفة القنال .. حتى هذه التفاصيل التى كان يحصل عليها من المشتركين فى هذه العمليات كان الانجليز يسمعونها فى برود .. ليس جديد عليهم أن تقوم عمليات ثورية ضد قوات الاحتلال .. لقد تعودوا على مواجهة هذه العمليات منذ قبل الثورة ويعرفون كيف يخططون لمواجهة الثورة .. حتى لو كانت الهيئة الحاكمة أو الحكومة تؤيد الثورة ضدهم .. كل هذا ليس جديدا والجديد هو أن يعرفوا ما فى داخل عقول رجال الثورة .. كيف يرسمون مستقبلهم ومستقبل مصر داخليا .. وما هى القوى الداخلية التى يعتمدون عليها .. ان الاحتلال من السهل عليه ان يواجه العمليات

الثورية الصريحة العلنية ، ولكن الصعب هو صد التحركات السريه قبل أن تبدأ وتمزيق القوى قبل ان تجتمع وتتكتل ..

وكان يجب حتى يحتفظ بقيمته أن يسعى إلى الوصول إلى مصادر أوسع .. وليس هناك مصادر يمكن أن تمده بما يريد الا مصادر ضباط الجيش الذين يسمون أنفسهم الضباط الأحرار خصوصا المقربين منهم الى مجلس قيادة الثورة .. أنهم وحدهم الذين يستطيع من خلالهم أن يكتشف كيف تفكر الثورة وكيف تخطط .. وكان من بين مصادره منذ قبل الثورة بعض الضباط الشبان الثوار .. ولكنه فى الواقع لم يكن اهتمامه عليهم .. لم يبد أن يكون من بينهم من يمكن أن تكون له قيمة فى تحقيق ثورة إلى أن فوجىء بأحدهم بعد الثورة وهو يعمل فى مكتب قائد الثورة .. انه البكباشى عبدالله عبد الصبور .. ولكن عبدالله أصبح صعب المنال .. لقد أرسل له أكثر من رسول لتحديد لقاء دون أن يلقاه .. انه معذور .. انه يبقى فى مكتبه بمجلس القيادة طول النهار وطول الليل .. ومكاتب كل مجلس القياده أصبحت تجمع بين المكتب الذى يعملون عليه والفراش الذى يلجأون اليه فى لحظات لا يستطيعون فيها مقاومة النوم .. الى أن فوجىء بالبكباشى عبدالله عبدالصبور يزوره فى مكتبه وبلا موعد .. ان عبدالله تغير .. انه ليس متواضعا صموتا كما عرفه قبل الثورة .. انه يتكلم فى لهجة قوية كأنه يلقى أوامر .. وجاءه وهو مرتد البدلة العسكرية بعد أن كان قد تعود ألا يزوره

الا وهو مرتد البدلة المدنية اخفاء لنفسه .. وقال عبدالله فى لهجة سهلة صريحة :

— لقد جئت اليك لتساعدنا مع أصدقائك الانجليز ..

وبهت رفعت .. انها أول مره يواجهه فيها أحد المسئولين بصداقته للانجليز .. هل هو اتهام .. وقال وكلماته تتعثر :

— انهم أصدقائى لأنى أعمل معهم فى عمليات الأستيراد .. صداقة عمل ..

وقال الضابط فى فتور :

— نعرف .. نحن نعرف كل شىء وواثقون أنك تستطيع أن تعاوننا .. ولدينا معلومات كافية عن تخطيط السياسة الانجليزية بالنسبة للجلاء عن القناة .. ولكنها معلومات من جانب واحد ونريد معلومات من الجانب الآخر .. الجانب الأنجليزى ..

وطال وطال الحديث وصورة ترتسم فى عقل رفعت عن وضع جديد بالنسبة له .. أن الثورة بصراحة تطلب منه أن يخدمها كما يخدم الانجليز .. أى أن يكون عميلا مزدوجا .. عميل للثورة وعميل للانجليز .. ولعلها لم تسع اليه الا وهى واثقه أنها الأقوى .. انها تستطيع أعدامه بتهمة الخيانة مادامت تعلم أنه رجل الانجليز ولكنها فضلت بدل اعدامه أن تستغل علاقته بالانجليز لصالحها .. أنهم أذكياء ..

ولكن من يمثل الجانب الأول الذى يقول عبدالله أنهم يستقون منه معلومات .. لعله برعى محمود .. لعلهم أكتشفوا أيضاً علاقته بالأمريكان فوضعوه هو الآخر عميلا مزدوجا .. وان كانت العلاقة بالأمريكان ليست فى خطورة علاقته بالانجليز .. ان أمريكا لاتحتل مصر عسكريا ..

ومادامت الثورة قد واجهته بصراحة فيجب أن يستسلم .. لم يعد من حقه الاختيار .. كان قد اختار الاعتماد الكلى على علاقته بالانجليز لأنهم كانوا القوة الوحيدة فى مصر .. القوة التى تحكم القصر الملكى وتحكم الأحزاب وتحكم كل ما فى مصر .. وربما كان كل رجال السياسة يعرفون أيامها علاقته بالانجليز ولكنهم لم يكونوا يصارحونه بأنهم يعرفون خوفا من أن تحمل مصارحتهم معنى الاتهام له فيخسرون الانجليز .. وكانوا يستسلمون له لأنهم يستسلمون لقوة الانجليز .. القوة الوحيدة .. ولكن يبدو الآن أن القوة الوحيدة لم تعد قوة الانجليز .. ان حكم الثورة يبدو كأنه حكم مستقل بنفسه .. حكم يمثل قوة بجانب قوة الانجليز .. ربما قوة الشعارات التى ثاروا بها ويمكن أن يستمروا بها حتى إلى أن تفشل الثورة ، وربما قوة تعتمد على تأييد أمريكا .. المهم أنه لم يعد يستطيع الاعتماد على قوة بريطانيا وحدها .. الا إذا كان غبيا فى حين أنه أذكى الأذكياء .. يجب أن يعتمد على كلا القوتين .. وبدأ فعلا فى تقديم المعلومات إلى رجال الثورة عن طريق صديقه عبدالله

عبدالصبور .. وتقديم معلوماته للانجليز عن طريق صديقه مالوكولم.. وان كان قد بدأ يقدر ويقيم المعلومات التى يقدمها هنا وهناك حتى يحتفظ بثقة كلا الطرفين .. ليس كل مايعرفه يقدمه .. ولكنه يقيم بحرص شديد ما يقدمه لرجال الثورة وما يقدمه للانجليز ..

وقد فهم فى الشهور الأولى للثورة مالم تفهمه الأغلبية فى مصر .. لأنها أغلبية جاهلة حتى مستوى القادة .. فهم أن الانجليز يؤيدون هذه الثورة .. بل ربما كانوا يعدون لمثلها .. فهى ثورة أطاحت بالملك فاروق الذى كانوا قد فقدوا ثقتهم فيه إلى نهايتها .. ثم أنها ثورة تؤكد أنها ستبقى محتفظة بنظام الحكم .. النظام الذى وضعه الانجليز ويحرصون على استمراره .. نظام الديموقراطية الانجليزية .. والثورة اعترفت بابن فاروق وليا للعهد .. وأقامت مجلس وصاية .. ووعدت بعودة الأحزاب إلى الحكم بعد فترة انتقال لابد منها .. أى نفس نظام الحكم الذى يريده الانجليز .. بل أن رفعت تأكد أن الانجليز قرروا الجلاء العسكرى عن منطقة القنال .. ولكن تكتيكهم لايزال التكتيك القديم المنفر .. ويماطلون ويمرقون ويتلاعبون بالألفاظ .. عقلية جافة متزمتة لايمكن أن تتطور لتلحق بفن التكتيك السياسى الجديد الذى ظهر بعد الحرب العالمية .. وهو ما فتح أمام أمريكا مجالا واسعا للتدخل بين مصر وبريطانيا على اعتبار أنها صديق للطرفين .. بل كأنها أصبحت شريكا كاملا فى قضية الجلاء

البريطانى كما أصبحت بعد ذلك بسنوات طوال شريكا كاملا مع مصر واسرائيل ..

وقد أصبح رفعت يبذل مجهودا أكبر فى جمع المعلومات وهو يحس أن المنافسة بينه وبين برعى محمود تشتد .. المنافسة بين بريطانيا وأمريكا .. وقد علم أن برعى يقيم اجتماعات سرية بين رجال الثورة والشخصيات الأمريكية التى تتولى القيادة فى السفارة الأمريكية .. وقد تعمد أن يعد مثل هذه الاجتماعات السرية ، وجمع بين صديقه مالوكولم وعبدالله عبدالصبور مدير مكتب القائد .. ويذكر أنه يومها حاول أن يترك الاثنين وحدهما كأنه يرد أن يقول لهما أن لا دخل له فى الأسرار . لولا أن قال له عبدالله فى لهجته الآمرة الجديدة :

ــ أجلس يارفعت بك .. أنك لست غريبا ولم تتعود أن نخفى عنك شيئا ..

إلى أن تطورت الأحداث ووجد رفعت نفسه فى حاجة إلى مزيد من الذكاء ..

لقد بدأ الخلاف داخل حكم الثورة بين محمد نجيب وجمال عبدالناصر .. واكتشف رفعت بسرعة أن الانجليز يؤيدون محمد نجيب بينما الأمريكان يؤيدون جمال عبدالناصر ..

لماذا ؟

ما الفرق بين محمد نجيب وجمال عبدالناصر بالنسبة للانجليز والأمريكان ؟!

ربما كان الانجليز يعتبرون محمد نجيب أكثر اقتناعا وايمانا وتمسكا بنظام الحكم القديم .. نظام الديمقراطية الانجليزية .. لأنه عجوز .. والانجليز حريصون على استمرار هذا النظام .. بينما الأمريكان يعتبرون عبدالناصر ذو عقلية ثائرة على كل آثار الانجليز بما فيها نظام الحكم ويمكن أن يقلب كل ما فى مصر إلى جديد .. وأمريكا وهى تقيم الامبراطورية الجديدة تريد كل شىء جديد ..

ورفعت يركز كل ذكائه فى اختيار موقعه بين محمد نجيب وعبدالناصر .. وهو رغم ارتباطه بالانجليز فيجب أن يحسب حساب مستقبله .. وهو فى تقديره لايستطيع أن يتجاهل قوة عبدالناصر رغم الشعبية التى كان محمد نجيب قد حصل عليها .. ثم أن حلقة الاتصال بينه وبين الثورة أى عبدالله عبدالصبور من رجال عبدالناصر ..

وبدأ يجتاز فترة حرجة من عمره .. لقد كان حريصا على أن يعرف رجال جبهة عبدالناصر أنه منهم وفى الوقت نفسه يحاول أن لايخسر جبهة محمد نجيب .. بل أنه كان يتعمد أن ينقل أخبار جبهة عبدالناصر إلى جبهة محمد نجيب وأخبار جبهة محمد نجيب إلى جبهة عبدالناصر معتمدا على أسلوبه وتكتيكه فى نقل الأخبار بحيث لايخسر هذه الجبهة أو تلك .. أخبار ينقلها كأنها مجرد كلام ..

إلى أن أنفرد عبدالناصر بحكم الثورة ..

ان الانجليز أغبياء فى كل تقديراتهم .. غباء العواجيز الذين أصبحوا عاجزين عن التطور ..

وكان الجلاء قد تم فى هذه الفترة .. ورغم أنه تم وفقا لكل ماطلبه الانجليز .. ورغم أنه لولا صداقتهم وتأثيرهم على محمد نجيب لم يوقع على معاهدة الجلاء وتركها لعبدالناصر يتصرف كما يريد فقد كان رافضا لشروط المعاهدة .. إلا أن الأسلوب الانجليزى القديم جعل الجلاء يبدو كأنه تم رغم أنفهم وأن الفضل فى تحقيقه للأمريكان ..

لاشك أن برعى محمود أصبح أقوى بعد الجلاء .. لقد أصبحت أمريكا هى الأقوى .. وبدأ رفعت يحس أن قيمته لدى رجال الثورة تنهار .. وقد بلغ من حقده على برعى محمود وغيظه منه أنه وجد نفسه يجمع كل ما يصل اليه من معلومات ويقدمها إلى صديقه الانجليزى مالوكولم .. وصديقه يستمع فى فتور وعلى شفتيه ابتسامة كأنها ابتسامة اشفاق كأنه يعلم سر المنافسة العنيفة بينه وبين برعى .. المنافسة فى حيازة حاجة الحكام إلى كل منهم .. إلى أن قال له مالوكولم مرة :

– أننا نعرف أن برعى محمود صديق للأمريكان .. ونعرف أنهم يعتمدون عليه إلى حد كبير .. ويقال أنه فعلا فى منتهى النشاط

وموهوب بالقدرة على خدمة الأصدقاء .. ولايهمنا أن نعرف عنه أكثر مما نعرفه .. بل أنه لو قدم إلى الأصدقاء معلومات تهمنا فهى تصل الينا عن طريق الأصدقاء .. أنت تعلم أننا حلفاء ..

وبهت رفعت وكأنه أفاق ..

صحيح .. ماذا يهم السفارة البريطانية من أخبار برعى .. وماقيمته بالنسبة لهم وماذا يريد منهم بابلاغهم أخباره .. هل ينتظر أن يطردوه أو يتخلوا عن ثقتهم فيه .. أنه ليس تابعا لهم .. أنه تابع لأمريكا .. وكان يجب أن يقدر أنه رغم كل التنافس السياسى بين بريطانيا وأمريكا فان التحالف قائم ويفرض عليهما أن يتبادلا المعلومات الهامة .. المعلومات التى يقدمها هو إلى بريطانيا تصل إلى أمريكا ، والمعلومات التى يقدمها برعى إلى أمريكا تصل إلى بريطانيا .. أنها أصول التعامل الدولى بين الحلفاء ..

وشعر أن ذكاؤه قد خانه واندفع فى تقديم معلومات عن برعى .. كان يجب أن يبدو متعاليا لايهمه برعى وفاهما لكل ما يتطلبه التعامل الدولى .. وكف عن تقديم معلومات أو أخبار عن برعى للسفارة البريطانية .. ورغم ذلك فقد كان يتمنى أن يصل إلى معلومات عنه يقدمها لرجال الثورة لا للسفارة .. أنه لو استطاع أن يبذر الوقيعه بين برعى والثورة لاستراح منه وأصبح هو وحده القوة التى تحتاج اليها الثورة .. هذا النوع من القوة ..

انه لن يستسلم أبدا للانهيار .. لن ينزوى ولن يكف عن المحاولة ..

إلى أن حدث الاعتداء الثلاثى ...

لقد أصبح برعى محمود هو كل شىء فمصر تريد أمريكا لتنقذها من هذا الاعتداء .. ووصل الاحتياج إلى برعى إلى حد أنه كان يرسل فى مهمات رسمية فى الخارج أثناء فترة الاعتداء .. مهمات يتكلم فيها باسم قيادة الثورة وان كان يسافر باسم أنه من رجال الأعمال ..

وتحقق الأمل ..

وانسحب المعتدون .. انتصر قادة الثورة على بريطانيا وفرنسا واسرائيل .. وربما كان برعى محمود يضحك بينه وبين نفسه ساخرا .. أنه هو الذى انتصر .. هو .. أمريكا ..

وأصبح رفعت البيومى كأنه لم يعد شيئا .. رغم أنه حاول أن يقدم الخدمات فى أيام هذا الاعتداء وكان يتعمد أن يبدو ضد الانجليز ويكشف عن أسرار يحاول أن يقنع بها القادة بأنها أسرار كفيلة بأن تطرد الانجليز والفرنسيين والاسرائيليين من مصر .. ولا شك أنه أبلغ القيادة عن الاعتداء قبل أن يقع .. كان كلما اتصل بمالوكولم بعد اعلان قرار تأميم القناة سمع منه قوله .. لن نسكت على هذا .. لايمكن أن نترك قناة السويس تؤمم .. انى أعلم أن هناك عملية كبيرة ستحدث .. وكان مالوكولم يقول له هذا

الكلام فى غيظ وحقد وحده كأنه هو شخصيا أعلن الحرب على مصر .. ولم يقل له مالوكولم أن الأعتداء سيقع ولاشيئا من أسرار تفاصيل هذا الاعتداء ، ولكنه كان ينقل كلماته إلى القيادة وكانت كلمات تكفى لتقدير أن الاعتداء سيقع .. وان كان لم ينس مسئوليته تجاه الانجليز .. لقد أبلغهم بالتفكير فى تأميم قناة السويس قبلها بشهور .. ولكنهم أغبياء تكاسلوا فى تفكيرهم حتى لم يجدوا ردا على التأميم الا هذا الاعتداء ..

• • •

وكان رفعت البيومى يستعرض ذكرياته وهو جالس فى استرخاء على الأريكة العريضة وأمامه كأس فارغ وبين أصابعه سيجار لايرفعه إلى شفتيه .. عندما وصلت زوجته آمال وهى منتصبة فى خطواتها برشاقة هادئة وبين شفتيها ابتسامة حلوة حنونه تطل من عينيها الجادتين .. انها ست البيت التى تحمل المسئولية كاملة .. مسئولية راحة البيت وراحة زوجها .. وقالت فى لهجه تجمع بين حب الزوجة ومسئولية المشرفة العامة على هذه الناحية من حياة الزوج :

— تأخرت كثيرا عن النوم ..

وقال رفعت ضاحكا وهو يضمها بعينيه :

— أحس كأنى نائم وأحلم .. نائم مع ذكرياتى ..

وقالت وهى تضحك ضحكتها الرصينة الجليلة :

— عودتنى ألا تنام بعيدا عنى .. لا يأخذك منى شىء حتى ولا ذكرياتك .. قم .. تأخرت كثيرا عن موعد النوم ..

وقال من خلال ابتسامته :

— سألحق بك ..

وقالت من خلال ابتسامتها :

— لم أنم فى انتظارك .. وأريد أن أنام .. لا تتأخر ..

وتركته مبتعدة إلى داخل البيت وهو يتبعها بعينيه وبريق من الزهور والغرور يعاوده .. ان آمال تمثل وحدها مرحلة ناجحة من مراحل حياته .. كان بعد الثورة قد بدأ يقتنع بأن حياته الخاصة التى يحياها لم تعد تصلح لتحقيق أهدافه فى هذا المجتمع الجديد الذى بدأ يفرض وجوده .. حياة الرجل الأعزب المعروف بمغامراته النسائية .. والتى تتسع لتقديم خدمات نسائية وليالى ماجنة للأصدقاء وصحيح أن قصص العلاقات النسائية لاتزال منتشرة بعد الثورة وظهر فيها نوع جديد من القصص عن مغامرات الضباط مع نساء العائلة المالكة والطبقة الراقية القديمة .. ولكن هذه القصص لم تعد واقعا مقبولا ومعترفا به اجتماعيا .. على الأقل من ناحية المظهر .. مظهر الفسق .. وان كان الفسق لايزال يعيش داخل السراديب .. ولبس قائد الثورة شخصية تعيش ملذاتها الخاصة .. تقامر مع

النساء أو تلعب القمار أو تقيم الليالى الصاخبة .. وتجعل من هذه الملذات واقعا اجتماعيا من حق كل الناس أن تعيش فيه .. كما كان الحال أيام الملك فاروق .. وكل قادة الثورة من الطبقة الوسطى التى لاتزال تؤمن فى تزمت بمبادىء التقاليد الشرعية .. وتحكم على الرجل بحياته الخاصة الظاهرة .. أى إذا أراد امرأه فليتزوج .. وإذا كانت هناك امرأة لم يتزوجها فليخفيها فى قاع حياته بحيث لايعرف بها أو تعرف به ..

أى أنه يجب أن يتزوج حتى يعيش هذا المجتمع الجديد الذى يعيشه القادة .. يجب أن يتزوج لا لأنه فى حاجه إلى الزواج ولكنه فى حاجة إلى التعامل مع هؤلاء القادة والحكام الجدد ..

ولكن كيف يتزوج .. ومن يتزوج .. أنه لايمكن أن يتزوج امرأة مرت على فراشه مهما كانت قيمتها الاجتماعية .. وقد مرت على فراشه بنات ونساء كثيرات من الطبقة الراقية .. طبقة الحكام .. هذه بنت فلان وهذه زوجة علان .. وكانت كل منهن ترضى غروره .. كان لايكتفى بالاحساس بأنه يأخذها بل كانت متعته الكبرى هو احساسه بأنه يأخذ أبيها أو يأخذ زوجها .. ينهكها فى فراشه .. ولم يفكر أبدا فى الزواج من احداهن .. وان كانت قد مرت به قصصا أضطر فيها أن يكذب وأن يخدع .. ربما لأن أصله لايزال يرسب فى أعماقه ويتحكم فى شخصيته .. أصله كابن فلاح من كفر البطيخ .. ليس بين رجال كفر البطيخ رجل يرضى أن

يتزوج امرأه يستطيع أن يأخذها إلى فراشه بلا زواج .. وربما لذلك تردد فى الزواج من مجدولين ابنة وكيل بنك باركليز رغم أن مصالحه كانت تلح عليه أيامها ليتزوجها .. ولعل البنات والنساء اللاتى مررن بفراشه لم تفكر احداهن أو تسعى للزواج به .. كانت كل منهن تقبل به كأنها مقدمة على لعبة مغرية تجربها .. لعبة مع رجل ناجح ثرى مشهور .. لعبة قد تخرج منها بهدية ثمينة .. أو بتوظيف واحد من أهلها لدى شركة من الشركات .. أو بمجرد التمتع بالفرجه على اللعبة كما تتفرج على فيلم سينمائى من الأفلام الممنوعة .. لذلك فليس فى حياته كلها قصة حب .. أنه لايعرف الحب بل لايعترف بأن ما يسمى بالحب .. هناك عمل .. عمل فقط .. وما كان يجرى على فراشه كان مجرد عمل .. عمل لذيذ ..

إلى أن التقى بآمال ..

والغريب أنه التقى بها لأول مرة عند برعى محمود .. كان يقيم حفلا رسميا بمناسبة افتتاح شركة جديدة لاقامة مزارع انتاج الفراخ والبيض .. شركة تساهم فيها أمريكا طبعا .. وكانت آمال بين المدعوين .. جاءت مع أبيها .. وشدت عينى رفعت .. انها ليست فى منتهى الجمال .. وليس هذا النوع من الجمال الذى يثير شهوة الرجل ويجعله يحملها بخياله إلى فراشه .. ربما شد عينيه اليها شخصيتها الجادة المحترمة التى تبدو بها حتى من بعيد وهى واقفة بين صديقاتها المتجمعات فى الحفل .. ووجد نفسه يقترب اليها عندما أحاط بها

بعض أصدقائه من المدعوين .. وكان أول ما لاحظه عنها أنها كثيرة الأسئلة .. وكلها أسئلة خاصة بتفاصيل الشركة التى تحتفل بافتتاحها .. وكلها أسئلة علمية كأنها تحاول أن تدرس وتفهم .. ولكنها لم تكن تلح فى أسئلتها انما فقط كانت كأنها تختار موضوع الحديث الذى يجمعها مع هؤلاء الرجال .. وقد احتد الحديث حتى قال لها أنه هو شخصيا بدأ فى مشروع استيراد أقمشة ومنسوجات من بريطانيا ويهمه أن تشاهد أنواع من هذه الأقمشة حتى تقول رأيها فيها ، وقال ضاحكا :

– ان الشابات الصغيرات أقدر على الحكم على مستقبل البضائع من السيدات ..

وقالت من خلال ابتسامتها المحترمة :

– أنا لست صغيرة .. وأرحب بأن أرى البضائع التى تقول عنها ..

واستطاع أن يحدد معها موعدا لتزوره فى الشركة ..

وبسرعة جمع كل مايستطيع أن يعرفه عنها .. أنها فوق العشرين وكانت طالبة فى مدرسة البنات الأمريكية ثم أصبحت الآن طالبة فى الجامعة الأمريكية .. وهى من عائلة كبيرة محترمة .. ليست من عائلات الطبقة التى كانت معروفة قبل الثورة ولا من العائلات التى عرفت بعد الثورة .. ليس فى عائلتها أحد من الضباط الأحرار ..

ولكنها عائلة من هذا النوع من العائلات القديمة التى تحافظ على احترامها لنفسها .. أنهم يملكون خمسمائة فدانا حول شبين الكوم .. ثم أنها ليست معروفة بشىء الا بنشاطها داخل بعض الجمعيات النسائية ..

ولكن ما علاقتها ببرعى بك محمود وقد التقى بها عنده ؟!

لا علاقة .. وليست موظفة عنده أو تعمل معه .. أنه يكاد لايعرفها .. لقد كانت فى الحفل بصحبة والدها .. وهو يعرف والدها الدكتور مصطفى فهيم .. أنه دكتوراه فى الزراعة ويعمل مستشارا لبعض الدور الزراعية .. لايمكن أن يكون والدها مشتركا مع برعى محمود فى علاقته بأمريكا ..

وقد جاءت اليه فى الموعد المحدد .. وقد أحس منذ اليوم الأول أن الحديث بينهما لايمكن أن ينتهى .. وقد تكررت اللقاءات وهى مقبلة عليها دون أن يكون لديها أهداف من وراء هذه اللقاءات .. يكفى أن تدرس وتفهم ولاشك أنها تستريح إلى لقائه .. وقد حاول معها وهى من الذكاء بحيث تفهم ما يحاوله ولاتصده بغضب ولاتعطيه بل تصده وهى تكتسب مزيدا من احترامه .. وقد عرض عليها كما تعود أن يعرض على كل الفتيات اللاتى يردنهن أن تعمل فى شركته .. مشرفه على اختيار الأقمشة والمنسوجات المستوردة .. ولكن لا .. أنها تفضل التفرغ لدراستها فى الجامعة الأمريكية إلى أن تنتهى منها ..

إلى أن جاء اليوم عندما قال لها وبين شفتيه الرفيعتين ابتسامة جادة :

– هل تعرفين ما ينقصنى فى حياتى وفى عملى ؟

قالت فى بساطة :

– ماذا ؟

قال وهو يلفها بكل عينيه :

– الزواج ..

وردت ضاحكة :

– تزوج حالا ..

وقال وهو يقبل بكل وجهه اليها :

– هل تقبلينى زوجا ..

وسكتت طويلا ولكن دون أن تبدو كأنها فوجئت أو ذهلت بهذا العرض أو كأنها كانت تنتظره، أو لعلها تفترضه فى كل رجل يطول اللقاء بينها وبينه .. أنها واثقة من نفسها .. وقامت منصرفة وهى تبتسم فى خفر قائلة :

– سألقاك عندما تزور بابا ..

ولم يكن أبوها سهلا .. أنه دقة قديمة يهمه الأصل والفصل .. ورفعت

انه ابن فلاح من كفر البطيخ .. وهو لم يحصل على شهادة جامعية .. ثم أن الكلام حوله بين رجال الأعمال كثير ليس كله كلاما مشرفا .. ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر ماوصل اليه رفعت .. لقد أصبح ثانى أو ثالث رجل أعمال معروف فى مصر .. وعائلته ارتفعت إلى أرقى المستويات .. لقد سعى لأخوته حتى أصبح كل منهم فى مركز محترم بعد أن أتم تعليمه الجامعى .. وتدخل بنفسه فى زواج اخوته البنات واختار لكل منهم زوجا محترما مشرفا .. وهو الآن يستطيع أن يشترى كل أراضى كفر البطيخ ويصبح الرجل المسيطر عليها كباشوات أيام زمان ولكنه لايريد كفر البطيخ .. أنه يتجاهلها كأنه يشطبها من أصله وفصله .. المهم .. ان آمال هى التى أصرت على الزواج به .. ليس لأنها تحبه هذا النوع من الحب ولكن لأنها مقتنعة به .. حب اقتناع .. وآمال تعتمد على عقلها أكثر مما تعتمد على عواطفها ..

وهو يذكر أول مرة لمست فيها شفتيه شفتى آمال بعد اعلان الخطوبة .. كان نوعا من القبل جديدا عليه .. قبل هادئة حالمة تدوم متعتها فترة طويلة قبل أن تنتشر متعتها فى باقى الجسد ..

وقد أنتقل من شقته فى جاردن سيتى إلى هذه الشقة الرائعة الفخمة المطلة على النيل وان كان لايزال محتفظا بشقة جاردن سيتى .. انه يتفاءل ويتبارك بها ولايزال فى حاجة اليها فى بعض اللقاءات الخاصة .. وهو يذكر الحفل الذى أقامه فى الشقة الجديدة ..

حفل الزواج .. لقد دعا اليه كل الشخصيات التى يعرفها وبينهم كثير من رجال الثورة والضباط الأحرار .. وذكر أنه خيل اليه ليلتها أن برعى محمود كان ينظر إلى العروس آمال وهو يصافحها كأنه يشفق عليها ويرثى لحالها .. وعندما صافحه كان ينظر اليه كأنه يلومه على اغتصاب هذه العروس ..

ولكن الزواج نجح وحقق كل أمانيه ..

لم ينجح بسهولة فقد عانى منذ الأيام الأولى كثرة أسئلة آمال .. انها تريد أن تعرف وتفهم كل شيء عن خصائص عمله بل وخصائص كل حياته .. لايمكن .. انها لن تعرف أبدا شيئا عن صداقته بالانجليز .. أنها لاتعرف شيئا حتى اليوم .. هذا مايجب أن يراعيه عميل مثله .. لايعرف أحد عنه شيئا حتى ولو كان من أهله .. وآمال عاقله .. قوية على نفسها .. فكفت عن السؤال واقنعت نفسها بأن يكون العمل له وحده وهى لها البيت والمجتمع .. بل أنه استطاع أيضاً أن يفرض ذوقه على آمال .. أصبحت هى الأخرى خاضعة للذوق الانجليزى فى كل ماتختاره لبيتها وفى كل ما تضعه من نظم الحياة .. احترمت شاى الساعة الخامسة .. واقتنعت بنظام البتلر .. بل أنها كانت تسافر مع رفعت إلى لندن وتلتقى هناك بمجدولين وتطوف معها لشراء الذوق الانجليزى .. لقد قال لها رفعت أن مجدولين كانت تذوب فيه صبابة .. لايهم .. لم يتحرك فى آمال شىء يغار على زوجها من ماضيه ..

ان زواجه من آمال حقق له كل ما يريده لنفسه ولعمله .. انه يزهو ضد ما يرى الذين يعرفهم يحسدونه عليها ، وربما يحترمونها أكثر مما يحترمونه .. وهو الاحترام الذى كان يجذب كثيرا من قادة الثورة اليه لزيارته .. وأكثر من ذلك .. ان آمال استطاعت أن تجعل من أولادها الأربعة أولادا ليس فيهم شيئا من أصله وفصله .. وليس فيهم ما يؤثر عليهم من شخصية أبيهم .. انهم كأولاد الأصول .. ليسوا من نسل فلاح من كفر البطيخ ولا أبناء عميل بريطانى ..

• • •

وقام رفعت لينام وذكرياته لاتزال معه كلها ..

انه أخذ آمال من مجتمع برعى بك محمود وحقق بها منتهى النجاح .. وقد حاول فى فترة مضت أن يأخذ منه شيئا آخر .. شيئا يغتصبه منه أو يشاركه فيه .. حاول أن يأخذ أمريكا ..

لماذا لايكون هو الآخر من رجال أمريكا فى مصر ..

وليس معنى ذلك أنه خطر على باله أن يتخلى عن بريطانيا .. أبدا .. ان بريطانيا هى بريطانيا مهما حل بها .. وقد كانت الصديقة الأولى التى فتحت أمامه كل هذا النجاح الذى حققه .. وستبقى الصديقة دائما .. وكانت العلاقات أيامها وبعد الاعتداء قد قطعت .. أقفلت السفارة واختفى صديقه مالوكولم .. ولكنه كلف بصداقة

يبرز السكرتير الأول بالسفارة السويسرية ليتلقى منه معلوماته وبتولى يبرز ارسالها إلى لندن .. ان لندن لاتستطيع أن تتخلى عنه وعن خدماته ..

ولكنه كان يتمنى أن يصل إلى صداقة أمريكا أيضاً ..

لماذا لا ..

أنه لو جمع بين بريطانيا وأمريكا فى شخصه لأصبح أقوى رجل فى مصر ..

(٦)

كان رفعت البيومى يبذل كل جهده وكل ذكاءه فى التقرب إلى الشخصيات الأمريكية التى تقيم فى مصر أو تمر بها .. سواء شخصيات العاملين فى السفارة أم شخصيات رجال الأعمال الزائرين .. انه يريد أن يأخذ أمريكا من برعى محمود أو على الأقل يشاركه فيها .. ولكنه اكتشف أن الأمريكان رغم البساطة التى تبدو عليهم ورغم الضحكات والابتسامات التى لاتكف عن شفاههم والنظرات البريئة الساذجة فى عيونهم ليسوا من الشخصيات السهلة ووراء مظهرهم البسيط عقليات حريصة معقدة لاتدرى كيف تفكر وإلى أين تتجه ..

وكان قد استغل اتصالاته الواسعة بحيث يكون موجودا فى كل حفل كبير أو صغير أو حفل عام أو خاص يجمع أى شخصية

أمريكية لها قيمتها .. وكان أى أمريكى يرحب بلقائه ويتلقى معرفته باحترام كبير .. ربما لأنه أصبح شخصية معروفة مشهورة .. احدى الشخصيات البارزة بين رجال الأعمال بصرف النظر عما تعرفه عنه بعض الأوساط من أنه صديق الانجليز الأول فى مصر .. ربما لهذا كانوا يرحبون ويحترمون لقاءه .. ولكنه كان دائما لقاء له الطابع الرسمى العادى .. انهم لايحاولون اكتسابه كما يحاول اكتسابهم .. لايجرون وراءه كما يجرى وراءهم .. رغم أنه كان فى كل مناسبة يحاول أن يثير اهتمامهم بأن لديه معلومات كثيرة خطيرة .. معلومات قد لايستطيع برعى محمود أن يحصل عليها .. ولكن لم يحاول أحد منهم أن يجرى وراء هذه المعلومات .. ويذكر مرة أنه التقى بمستر وليم بورنو مستشار السفارة الأمريكية .. انه يعلم عنه أنه ليس مستشار السفارة .. أنه ممثل المخابرات الأمريكية فى مصر .. أو ولم تكن أول مرة يلتقى به فيها فى حفل استقبال عام ولكنه أراد فى هذه المرة أن يكون أجرأ اقداما وأكثر صراحة فقال له فى لهجة طبيعية ومن خلال ابتسامته كما تفرض الأصول الدبلوماسية :

— أعتقد أن لدى موضوعات هامة يستحسن أن نناقشها معا .. هل تقبل دعوتى إلى تناول الشاى ؟

وقال وليم وهو يرد الابتسامة بابتسامة أوسع منها :

— أرحب ..

ولكنه كان فاترا فى تحديد موعد هذا اللقاء .. لم يتم اللقاء الا بعد حوالى أسبوع أو عشرة أيام .. وقد استقبله فى بيته الجديد المطل على النيل والمؤسس بالذوق الانجليزى .. ولم يكن متحفظا فى استقباله فاستقبال الأمريكان لايثير نفس الضجة التى كان يثيرها استقبال الانجليز .. ثم انه كان قد أبلغ صديقه البكباشى عبدالله عبدالصبور ممثل مجلس قيادة الثورة بخبر هذه الزيارة قبل موعدها .. انه مطمئن ..

وقد خطط فى لقاءه مع المستشار الأمريكى أن ينقل اليه معلومات يعتقد أنها معلومات خطيرة حتى يكتسب حاجته إليه .. وقال له بعد أن ملأ عليه بنظرة تنطلق بالخوف من الخطأ :

— انى متأكد أن مصر تسير فى اتجاه جديد..والعنصر الأساسى فى هذا الاتجاه هو الصداقة أو الاتصالات السرية التى بدأت بين عبدالناصر من جهة ونهرو الهندى وتيتو اليوغوسلافى من الجهة الأخرى ..

ولم يفاجأ وليم بهذا الخبر الخطير وقال فى بساطة :

— نحن نعرف ..

وقال رفعت فى غيظ :

— لايمكن أن تكونوا قد عرفتم كل شىء ووصلتكم كل التفاصيل ..

وأخذ يروى تفاصيل كثيرة .. بعضها وصلته فعلا عن طريق مصادره وبعضها ابتكرها بخياله السياسى الذى يثق أنه دائما خيال واقعى .. ولكن وليم مستمر فى بروده ويهز رأسه بين الحين والحين مرددا :

– نحن نعرف ..

وانتهت الزيارة بسرعة وانصرف وليم وهو حريص على كل المظاهر الرسمية .. مظاهر الصداقة الكاذبة والاحترام الكاذب .. لماذا يتعامل الأمريكان بهذا البرود والفتور .. هل هم مكتفين بصداقة برعى محمود إلى حد أنهم لايشعرون بحاجتهم إلى أى صديق آخر .. ولكن الدول لاتعتمد أبدا على صديق واحد .. ربما كان السبب هو أنهم يعرفون أنه صديق للانجليز ويمدهم منذ زمن طويل بكل ما لديه من معلومات .. حتى المعلومات التى كان قد أبلغها لويلم خلال زيارته كان قد سبق أن أبلغها للانجليز عن طريق صديقه الجديد بيرنز سكرتير أول السفارة السويسرية .. وهو يعرف أن مركز المخابرات البريطانية على اتصال بمركز المخابرات الأمريكية ويتبادلان المعلومات التى تهم كل منهما .. ان الأمريكان يتلقون معلومات عن طريق الانجليز ولا حاجة لهم لاقامة اتصال مباشر بهم .. ليسوا فى حاجه إلى الارتباط به ويكفى ارتباطه بالانجليز ..

ورغم كل هذه الخواطر التى تلح عليه باليأس من الأمريكان .. الا أنه لايكف عن المحاولة .. وقد قرر أن يجرب خطوة أخرى

يحاول بها أن يزج بشخصيته بين الأمريكان .. لقد أصبح لديه الآن كثير من الأمريكان ان لم يكونوا أصدقاء فهم معارف .. ويريد أن يجرب قيمته ومدى هذه المعرفة .. فتقدم بصفقة تربطه بأمريكا .. صفقه صغيرة لاتخرج عن استيراد كاوتشوك للسيارات .. ان العمليات التجارية تساعد على فتح الأبواب أمام العمليات السياسية .. ورغم كل الاتصالات التى قام بها مع معارفه الأمريكان فان الصفقة ظلت تسير فى الروتين العادى كأى صفقة يقوم بها أى مستورد عادى .. ليس له لدى الأمريكان قيمة خاصة أو مركزا خاصا .. لن تكون صفقة بالنسبة له .. انها مجرد عملية تجارية عادية لن يكسب منها المكسب الضخم الذى تعوده لابصفته من رجال الأعمال بل بصفته صديق .. صفقة ليست كالصفقات التى يعقدها مع الانجليز .. انه حتى اليوم يكفى أن يرسل برقية واحدة إلى لندن فتتم الصفقة وتصل البضاعة كأنها هدية .. كأنها أتعاب يستحقها للجهد الذى يبذله تأكيدا لصداقته ..

وفى هذه الأثناء كانت الأزمة تشتد بين قيادة الثورة وواشنطن .. أزمة حاجة مصر إلى السلاح الأمريكى .. ولاشك أن برعى محمود رجل أمريكا الأول يتحمل العبء الأكبر فى حل هذه الأزمة .. أنه يلتقى كل يوم بالقيادات كأنه أصبح عضوا فى مجلس القيادة .. ولكن صفقة الأسلحة التى حاول برعى أن يحققها بين مصر وأمريكا قبل الثورة وأفسدها عليه لم تعد تصلح بعد الثورة .. ان الثورة تريد

أنواعا من الأسلحة لايمكن أن تعطيها لها أمريكا حرصا على مسئوليتها عن اسرائيل .. وبرعى لايمكن أن يؤثر فى موقف أمريكا من اسرائيل ..

وخلال اشتداد هذه الأزمة وصلت إلى رفعت معلومات أنه جاء إلى مصر مستر مايكل استيوارت .. انه أحد الشخصيات الرئيسية الهامة فى المخابرات الأمريكية وقد جاء بصفة غير رسمية .. جاء كمجرد سائح ليتفرج على الأهرامات وأبو الهول .. ولكنه قطعا جاء لينبش أسرار أزمة السلاح .. وربما ليدرس احتفالات قيام انقلاب فى مصر يريحهم من عناد وغرور عبدالناصر .. وآه لو استطاع رفعت أن يقابله .. لعله من خلاله يستطيع أن يكسب أمريكا كلها .. وقام باتصالات سريعة استطاع بها أن يقابل مايكل ستيوارت ..

انه شخصية تتميز عن الشخصيات الأخرى التى سبق أن قابلها .. انه يستمع للمعلومات بطريقة تدفع إلى اعطائه مزيدا من المعلومات .. وهو يسأل كثيرا حتى عن التفاصيل الدقيقة التافهة .. واستراح له رفعت .. أحس كأن أمريكا بدأت تعترف به كشخصية هامة تحتاج إلى صداقتها .. إلى أن قال له رفعت متماديا فى تقديم خدماته :

– انى مستعد أن أدبر لك لقاء مع أحد الضباط القريبين من مجلس قيادة الثورة .. وأنصحك أن تقدم على هذا اللقاء ..

وقال مايكل مرحبا :

– أرجوك .. انها خدمة لا أنساها ..

ودبر له رفعت لقاء مع صديقه عبدالله عبدالصبور .. ولم يشترك رفعت فى هذا اللقاء .. لم يدعه صديقه عبدالله للاشتراك فيه .. ولكنه عرف التفاصيل .. انه لقاء أستمر ساعتين ثم قام عبدالله وصحب مايكل للقاء عبدالناصر ذاته .. واستمر اللقاء بعبدالناصر أكثر من ساعة .. وطبعا لم ينته اللقاء على الوصول إلى حل الأزمة ولكنه انتهى إلى اثارة أمل كبير فى حلها .. قد تقبل أمريكا امداد مصر بالسلاح .. والفضل لرفعت .. أنه هو الذى دبر الخطة التى فتحت الطريق .. وقد اتصل به مايكل ستيوارت فى التليفون قبل سفره عائدا إلى وطنه ليشكره .. وسأله رفعت من خلال فرحته وغروره بذكائه كيف يستطيع أن يتصل به فى واشنطن .. وأعطاه مايكل وسيلة الاتصال به وان كان رفعت قد كشف وهو يسجلها أنها وسيلة لاتوفر الاتصال بمايكل شخصيا ولكن الاتصال بمكتب يستطيع أن يصل اليه من خلاله .. لانهم .. ان الادارة الأمريكية معقدة بالروتين حتى فى مثل هذه الاتصالات..

ولم تمض يومان وكان رفعت مدعوا إلى حفل دخل اليه وهو مزهوا بينه وبين نفسه بعبقريته وذكائه بعد ما حققه من انتصار فى تحقيق اكتساب صداقة أمريكا .. ورأى فى الحفل برعى محمود ولم يمالك احساسه بالشماتة فيه .. لقد حقق أكبر نصر بتدبير لقاء

سريا بين عبدالناصر وأمريكا .. وربما أطلت هذه الشماتة من عينيه فاقترب منه برعى محمود وصافحه فى حرارة وشدة بعيدا عن الناس وقال له من خلال ابتسامة تبدو كأنه كليشيه باهت بين شفتيه :

— انى معجب بك وبنشاطك .. استمر فى هذا النشاط ..

وقال رفعت وهو يحاول أن يبدو متعاليا :

— أى نشاط ؟ !

وقال برعى من تحت كليشيه ابتسامته :

— نشاطك مع مايكل ستيوارت وتدبير لقاء مع عبدالله عبدالصبور الذى أنتهى بلقاء عبدالناصر ..

وابتلع رفعت ريقه كأنه يبتلع صدمة وقال فى صوت مرتعش :

— ان كل منا يقدم ما يستطيعه من نشاط فى خدمة بلده ..

ثم ابتعد بسرعة عن برعى محمود ..

لم يكن ينتظر أن يكون على علم بكل ما حدث .. أنها معلومات سرية وفى أعلى درجات السرية .. من أين وصل إلى هذه المعلومات.. هل وصل اليها عن طريق عبدالله عبدالصبور ؟ .. لايمكن .. ان عبدالله يكرهه بل يعتبره من أعداء الثورة .. ولايمكن أن يكون قد حصل على هذه الأسرار من جمال عبدالناصر .. ان المعروف عن

عبدالناصر أنه لايقول شيئا ولا لأقرب الناس اليه الا إذا كان مضطرا إلى قوله .. وهو ليس مضطرا لأن يقول لبرعى شيئا .. لاشك أن برعى حصل على هذه المعلومات من الجانب الأمريكى .. لعل أمريكا لاتستطيع أن تتحرك فى مصر الا عن طريق برعى أو باستشارته .. ويجب أن يكون على علم بكل شىء حتى يقدم الرأى والنصيحة كمستشار ..

كأن رفعت كان يعمل مع برعى لا مع أمريكا .. كأنه لن يستطيع أبدا أن يقفز فوق برعى ليصل إلى أمريكا ..

لايهم ..

أنه لن يخسر شيئا بمحاولة اكتساب أمريكا متحديا برعى محتفظا دائما بالاعتماد على الانجليز ..

وأزمة الأسلحة لن تحل .. لم يستطع مايكل ستيوارت أن يعدل من موقف أمريكا ولعله كان يخدع عبدالناصر ويخدع عبدالله عبدالصبور ويخدعه لمجرد أن يخرج من خداعه بأسرار جديدة عن تخطيط الثورة .. إلى أن سافر جمال عبدالناصر إلى باندونج وقد قرر أن يخطو الخطوة الحاسمة .. ستفتح مصر الباب أمام الاتحاد السوفيتى .. وقد بذل رفعت كل نشاطه ليجمع أخبار هذه الخطوة الحاسمة .. اتصل بأرقى المستويات وبالمستويات العادية .. بكل من كان مع عبدالناصر فى باندونج .. ثم بأصدقائه فى سفارة الهند ويوغوسلافيا وهو متأكد من تأثير نهرو وتيتو على عبدالناصر وقد كانا معه فى

باندونج .. ثم عرف أن الذى أقنع عبدالناصر بالاتحاد السوفيتى هو شوين لاى الزعيم الصينى فاستطاع بسرعة أن يقيم اتصالات مع سفارة الصين ويستزيد من المعلومات .. ويبتسم رفعت وهو يستعيد ذكرياته .. ان شوين لاى دفع مصر الى الاتحاد السوفيتى عندما كانت الصين متحالفة معها وهو لايدرى أنه بعد ثلاثة أعوام سيعلن الحرب على الاتحاد السوفيتى ..

وقد أصبح لدى رفعت زخيرة هائلة من المعلومات وفى وقت أصبح الوضع العالمى كله على وشك الانهيار بالنسبة لمصر .. من الأفضل أن يسافر الى لندن لتوصيل هذه المعلومات بنفسه .. لماذا لا يسافر الى واشنطن أيضا لابلاغ معلوماته .. انها معلومات تفرح بها واشنطن وتطير من الفرح .. وربما استطاع فى واشنطن وبفضل المعلومات التى يقدمها أن يحقق صفقة .. أنه يحلم بأن يحقق أول صفقة تجارية له مع واشنطن ..

وسافر إلى جنيف فى سويسرا أولا .. فالعلاقات مقطوعة بين مصر وبريطانيا ويجب أن يكون أكثر احتراسا ولا يبدأ سفره بلندن .. وفى لندن أعطى الكثير من المعلومات ولكنه احتفظ بجزء منها لأمريكا .. انه يريد أن يقنع الأمريكان بأنهم يستطيعون أن يأخذوا منه شخصيا أكثر مما يأخذونه منه عن طريق الانجليز .. ومن لندن اتصل تليفونيا بواشنطن لتحديد موعد للقاء مايكل

ستيوارت .. لم يكن تحديد الموعد سهلا .. وكان موعدا غريبا .. انهم يطلبون منه أن يصل الى واشنطن .. وسيتصلون به فى الفندق الذى يقيم فيه لتحديد موعد ومكان اللقاء .. لعله نفس الروتين المعقد المعروف عن الادارة الأمريكية ..

وبقى رفعت فى واشنطن حوالى أربعة أيام وهو فى انتظار من يتصل به بالتليفون .. وعندما تحدد الموعد لم يكن حفلا يقيمه له مايكل ستيوارت .. ولا دعوة إلى الشاى فى بيته أو على الأقل فى مكتبه .. بل كان موعدا فى بهو أحد الفنادق البعيدة .. واستقبله مايكل فى برود .. كأنه نسى فضله فى تدبير لقاء له مع عبدالناصر . أو أن لقاء عبدالناصر لم يكن له كل هذه الأهميه التى كان يقدرها.. وبدأ رفعت يسرد معلوماته ومايكل يستمع وهو يردد كلمة .. مفهوم .. مفهوم .. دون أن تبدو عليه دهشة أو انزعاج أو فرحه أو أى احساس .. وقال رفعت كأنه يحاول أن يثيره :

— انى أخشى أن تكون أمريكا على وشك أن تخسر مصر ..

وضحك مايكل ضحكة ساخره قائلا :

— لماذا لا تقول ان مصر هى التى تخسر أمريكا .. وتأكد أننا حسبنا حساب كل شىء ..

ثم قام مايكل واقفا مستطردا :

— آسف يجب أن أذهب .. ورائى أعمال مضنية .. شرفتنا فى واشنطن ..

وهكذا انتهى اللقاء ..

لم يبد أن مايكل كان مرحبا بالمعلومات التى قدمها له .. ولم يطلب منه لقاءا ثانيا ولم يكلفه بأى خدمة يقدمها لأمريكا .. بل يبدو أن مايكل لم يقابله الا كنوع من أداء مظاهر الواجب .. أنها خيبة كبيرة .. سافر رفعت حتى واشنطن ولم يعد الا بالخيبة ..

انه لم يصل إلى شىء مع أمريكا الا إذا أزاح برعى محمود عن طريقه .. أزاحه من مصر كلها ..

ولكن وهو فى طريق عودته بدأ فكرة جديدة تطرأ على تفكيره .. ان أمريكا فى طريقها إلى النزوح عن مصر وسيحل محلها قطعاً الاتحاد السوفيتى .. ان العالم كله اما أن يعتمد على أمريكا أو على الاتحاد السوفيتى .. فلماذا لايتحول هو الآخر .. يتحول من أمريكا إلى الاتحاد السوفيتى .. ويجب أن يبدأ من الآن قبل أن يستكمل الاتحاد السوفيتى وجوده فى مصر حتى لايبدو كأنه من بين قطيع الأغنام ..

وأقام وهو فى طريقه إلى مصر بضعة أيام فى لندن ..

أنه مهما تجاذبته الأفكار ستبقى لندن دائما هى الأصل .. هى الحسب والنسب لمصر كلها ..

• •

وابتسم رفعت ابتسامة واسعة وهو يتذكر أيامه مع الاتحاد السوفيتى .. ابتسامة تنبض بغروره واعتزازه بنفسه وبذكائه .. أنه

العبقرى رفعت البيومى .. وكانت قد بدأت معركة جديدة داخل مصر .. معركة الأصدقاء كما كانت المعركة بين أمريكا وبريطانيا . انها معركة صريحة عنيفة بين عدوين لدودين .. معركة أمريكا والاتحاد السوفيتى .. ويجب أن يحدد موقفه من هذه المعركة .. والعبقرى لاينحاز فى أى معركة إلى جانب ويعادى جانب .. إنما يكسب صداقة القوى محتفظا بثقة الضعيف ..

ولاشك أن الاتحاد السوفيتى أصبح الآن هو القوة فى مصر .. وهو فى حاجة إلى اكتساب هذه القوة ولكن فى الوقت نفسه يجب ألا يضحى بصداقة لندن أو يعرض هذه الصداقة للشك الذى قد ينتهى بفقدان الثقة .. ويجب فى الوقت نفسه أن يحتفظ باقتناع أمريكا بأنه رجل الانجليز وأنه لم يتحول إلى الجانب الآخر ويصبح رجل السوفيت .. أن رجل الانجليز تعتبره أمريكا رجلها أما رجل السوفيت فهو عدوها .. ومن يدرى ما ستكون عليه نهاية هذه المعركة .. ربما تعود أمريكا وتسترد كل قواها فى مصر .. يجب أن يحترس ويحسب حسابه .. هذه هى شيمة العباقرة ..

ولم يكن قد سبق له التعامل مع الاتحاد السوفيتى فى أى صورة من الصور ولا فى أى ناحية من نواحى التعامل .. أنه لايفهم عرفهم ويجب أن يبذل مجهودا فى اكتشاف طبيعتهم وتفاصيل الأسس التى يجب أن يعتمد عليها للوصول إلى التعامل معهم .. وكانت طائفة

جديدة قد بدأت تطفوا على سطح مصر .. سطح الحكم .. طائفة الشيوعيون الماركسيون .. وهو لم يكن أبدا يحارب الماركسية حربا صريحة عنيفة .. انما فقط كان ينحيها بعيدا عن اهتمامه .. وكان من بين معارفه من شبان ورجال الحركة الوطنية نفر قليل يعرف أنهم ينتمو إلى تنظيمات ماركسية .. لقد كان الماركسيون يدرسون أنفسهم ويتسللون إلى داخل كل حركة وطنية مهما كان لونها أو أو اتجاهها .. ولكنه لم يكن يهتم بهؤلاء الماركسيين أو يقربهم اليه .. كان يكتفى بأن يتبادل معهم الكلمات الطنانة المعروفة .. كانوا فى نظره ضعفاء لايساوون شيئا فى التأثير على الحكم .. ولكنهم اليوم أصبحوا أقوياء .. أصبحوا القوة الوحيدة المسيطرة على تصريف الأمور داخل مصر وكثير من أفرادهم وصلوا فجأه إلى مناصب تحملهم مسئولية الحكم ..

واستطاع بسرعة أن يقرب أصدقاءه الماركسيين القدامى وأن يصل من خلالهم إلى أصدقاء جدد خصوصا إلى القيادات الماركسية التى بدأت تشترك فى الحكم ، ولكنه وصل إلى التعارف ببعض رجال السفارة السوفيتية فى مصر .. والسفارة التشيكية .. والسفارة الرومانية . وسفارة ألمانيا الشرقية .. و .. و .. وكل سفارات الجبهة الشرقية .. وقد وصل ببعض هذه الصداقات إلى صداقات شخصية بعيدة عن الرسميات .. أنهم يحبون الدعوة إلى الجلسات

الساهرة وكان مما أدهشه أنهم يفضلون شرب الويسكى على شرب الفودكا ، وأكل السوسيس على أكل الكافيار .. غريبة ..

ولم يحاول أن يقدم نفسه إلى أصدقائه الجدد فى هذه الفترة كمصدر معلومات يمكن أن يتعاملوا معه ويعتمدوا عليه .. انما كان حريصا على أن يقدم نفسه ويعرفونه كرجل أعمال من كبار رجال الأعمال فى مصر المقربين إلى الحكام .. كما لم يحاول أن يتقرب اليهم بادعاء ايمانه ولا حتى تأييده للمذهب الماركسى .. أنه ليس ماركسيا ولا هو ضد الماركسية .. إنه رجل أعمال لايضيع وقته وجهده فى مناقشة المذاهب .. وبصراحة .. ليس له مذهب .. أنه فقط صاحب مصالح .. وقد اكتشف أن الروس وكل من فى دائرتهم يرتاحون أكثر فى اجراء العمليات التجارية البعيدة عن السياسة من غير الماركسيين .. وأغلب الذين يتولون عمليات التصدير والأستيراد بين مصر ودول الاتحاد السوفيتى ليسو من الماركسيين أو من أفراد التنظيمات الماركسية .. أن مهمة هؤلاء قاصرة على التحركات السياسية .. أما العمليات التجارية والاقتصادية فان الروس يريدون أن يرتاحوا فى أدائها من المناقشات والشعارات المذهبية حتى يكونون أكثر حرية فيكسبوا أكثر .. وحتى فى تخطيط التحركات السوفيتية داخل دول العالم لايحصر السوفيت اعتمادهم على قادة أو زعماء ماركسيين .. ان جمال عبدالناصر لم يكن ماركسيا رغم أنه كان اليد الأولى التى اعتدت وشدتهم إلى داخل

دنيا العرب .. وحافظ الأسد حاكم سوريا ليس ماركسيا ولا معمر القذافى حاكم ليبيا ، ولانهرو حاكم الهند الذى فتح أمامهم أبوابه السياسية .. وبالعكس .. كانت أعنف حرب سياسية خاضتها روسيا مع دولة صغيرة حربا مع قائد ماركسى .. مع تيتو الرئيس اليوغوسلافى .. لذلك كله فلايهم رفعت البيومى أن يدعى الماركسيه حتى يكسب صداقة السوفيت .. ان كل مايهم موسكو هو ماذا تأخذ وماذا تعطى ..

وكان المشروع الأول الذى وضعته للتعامل مع الاتحاد السوفيتى مشروعا غريبا ..

انه لن يصدر من مصر ويستورد من الاتحاد السوفيتى مباشرة .. ولكنه يصدر من انجلترا إلى الاتحاد السوفيتى ، ثم يصدر الاتحاد السوفيتى إلى مصر .. انها عملية لايقوم بها إلا عباقرة رجال الأعمال الذين يستوردون بعملياتهم العالم كله ..

وربما كان ما دفعه إلى تخطيط هذه العملية هو رغبته فى الهروب من التعامل بحساب الروبل .. أنه لايعترف بهذه العملة رغم كل عظمة الاتحاد السوفيتى .. بل أنه اكتشف أن الروس يفضلون أن تقوم كل عملياتهم الخارجية بحساب الدولار .. أنهم لايستطيعون أن يهربوا أو يتعالوا على قوة عملة العدو .. قوة الدولار .. وهذه العملية ستعفيه من شراء الدولار .. ولكنه ربما كان يريد فى الوقت نفسه أن ينفى عن نفسه شبهة الانتقال إلى الجانب الآخر من المعركة

الدائرة داخل مصر .. الجانب السوفيتى .. أنه يعلن اعتماده على صداقة الانجليز ويشترك مع الشعب الانجليزى فى تصدير منتجاته إلى الخارج ..

وكانت العملية التى خطط لها عملية صغيرة يجرب بها ما يمكن أن يتسع لها المستقبل .. كانت عملية تقوم على تصدير شحنات من الشيكولاته من لندن إلى موسكو نظير تصدير شحنات من الأقمشة القطنية إلى القاهرة .. ويمكن أن تقبل موسكو استيراد الشيكولاته .. ان الحكم الماركسى لايبخل على الشعب الروسى متعة تذوق الشيكولاته المودرن الراقية بجانب الشيكولاته المحلية . هذه العملية كلفته من المتاعب أكثر مما كلفته أكبر عملية قام بها فى حياته .. ان الروتين الروسى أعنف تعقيدا من الروتين المتبع فى أى بلد من بلاد العالم .. والعمليات لاتتم الا من خلال سراديب تحتية ولايمكن أن تسير بها فى شوارع مفتوحة مريحة .. وكان لايمكن أن تتم العملية عن طريق اتصالاته بالسفارة السوفيتية فى القاهرة ، ولا بسفارتهم فى لندن ، واضطر أن يسافر إلى موسكو .. لقد كان يريد السفر إلى موسكو لعله يستطيع أن يتعارف هناك بشخصيات لها قيمة يقيم معها علاقات على مجال أوسع .. وقد سافر كرجل من رجال الأعمال .. لا كصديق من أصدقاء نقل المعلومات .. مجرد رجل أعمال فى عمل .. وقد استقبل هناك بترحاب كبير من كل من كان العمل يتيح له لقائهم .. وربما كان هذا الترحاب لأنه معروف

عنه أنه مقرب لرجال القيادة فى مصر .. وربما كانت هذه هى طبيعة المسئولين الروس .. طبيعة شرقية فى المبالغة بالترحيب .. خصوصا الترحيب بعمليات اقتصادية .. وقد استطاع أن يستغل هذا الترحاب فى التعرف بشخصيات مسئولة بل استطاع أن يصل إلى لقاء الوزير المختص ، ولكنه وجد نفسه حائرا فى تحديد قيمة مسئولية كل من يقابله ومدى نفوذه وسيطرته ونوع اختصاصه .. انك فى روسيا تحس أنهم كلهم مسئولين أصحاب نفوذ وسيطرة وفى الوقت نفسه تحس أن ليس بينهم من يعتبر مسئولا أو صاحب نفوذ وسيطرة ..

شىء آخر اكتشفه فى تعامله الأول مع الاتحاد السوفيتى .. وهو أنه يجب أن يدفع .. أن يدفع لمن يحملون أو يوقعون الأوراق .. وهو قد تعود الدفع .. العمليات كلها فى كل العالم تفرض عليك أن تدفع بعيداً عن تحديد الأسعار .. ولكن الدفع فى التعامل مع الدول الأخرى سهل .. بسيط .. صريح .. أنك تدفع عمولة مقررة شرعا بحكم القانون .. ولكن القانون فى الاتحاد السوفيتى يحرم العمولة .. لايبيح الدفع لمن يحمل الأوراق .. ان الدفع يعتبر جريمة .. رشوة .. ورغم ذلك اكتشف أنه يجب أن يدفع داخل السراديب التحتية .. حتى فى موسكو اضطر أن يدفع وان كان أكثر ما يدفعه يقدمه فى شكل هدايا .. وكان بعضها هدايا ساذجة ولكنها تفرح من يقدمها اليه ولو كانت مجرد مجموعة من اللبان

التشكلتس الأمريكى، أو بضعة علب من سجائر مارلبورو .. انها أشياء يشتاقها ويحلم بها الناس هناك ..

ورغم أن قيمة ما تعود أن يدفعه أقل من قيمة العمولات التى يدفعها فى الدول الأخرى التى تعتبر دولا رأسمالية ، ولكن وسيلة الدفع كانت دائما متعبة تهدده بالخطر ، حتى أنه مع استمرار تعامله مع الاتحاد السوفيتى تسبب فى تغيير طاقم السفارة الروسية فى مصر مرتين لاتهامهم بأنهم أخذوا منه عمولات .. رشاوى ..

وقد استغرقت العملية الأولى التى قام بها أكثر من ستة شهور متعبة منهكة ولكنه تحملها بصبر لأنه كان يريد أن يخطو الخطوة الأولى فى أكتساب صداقة الاتحاد السوفيتى ..

وقد كسبها واستمرت الخطوات ..

• • •

ودخلت عليه زوجته آمال وهى فى ثوب النوم وقالت من خلال ابتسامتها الحلوة المحترمة :

— ماذا جرى لك .. هذه ثان ليله تنفرد فيها وحدك صامتا إلى ما بعد منتصف الليل ..

وقال ضاحكا :

— أنى لست صامتا .. انى أعيش فى حديث طويل مع ذكرياتى .. وأنت تعلمين إنى أمر بظروف تتركنى متفرغا

للذكريات .. أن الماضى فيه مايعينى عن المستقبل .. ومن أجل خاطرى أتركينى أعيش الذكريات ..

ومسحت آمال بيدها على شعر رأسه الأكرت فى حنان كأنها تخفف عنه قسوة الظروف التى تعلم أنه يمر بها .. ثم ابتعدت وتركته لذكرياته ..

ورفع السيجار الهافانا الفخم إلى شفتيه وابتسم ابتسامة واسعة وهو ينفث الدخان ..

انه خلال هذه الفترة التى بدأ فيها حياته مع الاتحاد السوفيتى لم ينس أبدا برعى محمود رجل أمريكا الأول فى مصر .. لقد استطاع أن يسحقه ويزيحه من طريقه .. لم يكن يستطيع أن يتحرر من اصراره على الاستيلاء على أمريكا أو مشاركته فيها ..

أنه إلى اليوم لايزال يحلم بأمريكا ..

(٧)

كان رفعت البيومى جالسا فى الصباح على مقعد فى الحجرة الملحقة بالحمام والمغطى جدرانها بالمرمر والبلاط القيشانى بينما الحلاق الخاص بيحلق له ذقنه ويهذب شعيرات رأسه .. ورئيس الخدم واقف يراقب موس ومقص الحلاق كأنه مسئول عن كل شعره من الشعرات الغالية فى ذقن وعلى رأس السيد .. جناب اللورد رفعت .. بينما يستعد لاعداد الحمام حيث تعود جناب اللورد أن يقف تحت الدش كل صباح .. ثم يعد له ثيابه ويركع تحت قدميه وهو يلبسه البنطلون والحذاء ويقف خلف ظهره وهو يلبسه القميص والجاكت مع عقد رباط العنق حول الرقبة المصونة ..

ورفعت جالس وصدره منفوخ باحساسه بالعظمة وبالعز والفخامة التى حققها لنفسه .. أنه هو الذى أقام هذه الحجرة اللامعه

بالمرمر فلم تكن من بين تنظيم الشقة عندما إستأجرها .. ان الحمام الذى تستحم فيه ملكة انجلترا فى قصر بكنجهام ملحق به مثل هذه الحجرة .. ومن كان يصدق أن يكون له حلاقا خاصا يأتيه كل صباح وكل مساء ليشذب ذقنه وشعره .. إنه يدفع لهذا الحلاق أتعابا تصل إلى حوالى مائة جنيها فى الشهر .. من كان يصدق .. أنه عندما كان طفلا فى كفر البطيخ لم يكن يلمسه مقص حلاق الا كل شهر مرة أو كل شهرين ولايتقاضى أتعابا سوى قرش واحد .. يذكر أنه كان قرش تعريفة .. نصف قرش .. وقد ارتقى بعد أن انتقل إلى القارة وعاش فى المدارس وأصبح يدفع للحلاق قرشا كاملا .. ثم قرشين .. ثم ثلاثة قروش .. ولم يكن يتخيل أنه سيأتى عليه اليوم الذى يدفع فيه للحلاق مائة جنيها فى الشهر .. ويدفع بارادته ومزاجه .. يدفع استكمالا للعظمة التى وصل اليها .. إن المثل الشعبى يقول « أفحت الأرض تنتج بطيخ » ولكن ذكائه كان أوسع فهاجر من كفر البطيخ وفحت فى أرض أخرى فانتج الملايين .. إنه مليونير ..

و كان رفعت فى جلسته متكاسلا لايتعجل الحلاق ولا رئيس الخدم فى الانتهاء من اعداده ليخرج إلى العمل كما كانت عادته .. أنه هائم مع ذكرياته .. والذكريات يتمتع بها حتى أن متعته تحرمه أيضاً من النوم .. ان أغلى ما بقى لديه هو الذكريات ..

وهو يذكر أنه بعد الثورة يتعمد أن يخفى كل مظاهر العز التى وصل اليها .. حتى أنه كان يتعمد اختيار البدل وأربطة العنق المتواضعة ليبدو بها أمام طبقة الحكام الجدد .. وركن السيارة المرسيدس التى كانت تحمله فى شوارع القاهرة وأصبح يركب سيارة بيجو عادية رغم أن السيارة التى لايزال يحتفظ بها فى لندن ويتنقل بها فى شوارعها سيارة من ماركة رولز رويس .. سيارة أصحاب الملايين .. أن رجال الثورة غلابة يحقدون على أصحاب الملايين وهو لايريد أن يصيبه حقدهم .. بل كان عندما يدعو بعضهم إلى بيته يأمر رئيس الخدم بأن يختفى فى المطبخ ويقوم السفرجى وحده بالخدمة .. كل البيوت يقوم على خدمتها سفرجية .. ولكنه احتفظ بكل مظاهر العز والفخامة لنفسه فى حياته الخاصة داخل بيته .. انه لايستطيع أن يحرم نفسه من متعة العظمة التى وصل اليها .. عظمة اللوردات .. ولو اضطر أن يخفى هذه المتعة بعيدا عن التفاخر بها أمام الناس ..

وقد استطاع بذلك أن يكسب صداقة رجال الثورة .. الصداقة الشخصية والثقة المطلقة .. وطبعا لم يكن اختيار المظهر هو الأساس الذى وصل به إلى هذا الكسب .. ولكنها الخدمات .. أثبت أن الثورة كلها تستطيع أن تعتمد عليه فى تقديم هذا النوع من الخدمات .. حتى أصبح يعتبر فى مجاله الرجل الأول للثورة خصوصا بعد أن استطاع أن يقضى على غريمه رجل أمريكا الأول فى مصر برعى محمود ..

كيف استطاع أن يقضى على برعى ؟

كانت الأزمة قد اشتدت بين مصر وأمريكا حتى وصلت إلى أن أصبحت أمريكا وكأنها تخلت عن مصر وقطعت كل علاقة لها بها ، وتركتها كسبا كاملا للاتحاد السوفيتى .. وبدأت قيادة الثورة تبعد كل أصدقاء أمريكا أو كل من له علاقة بها حتى لو كان مجرد رأسماليا صغيرا صاحب ورشة أو محل بقالة .. يكفى أن يكون رأسماليا ليكون مرتبطا بأمريكا .. ولكن برعى محمود كان له وضع آخر .. كانت الثورة تعلم أنه أمريكى واتفقت معه على أن يعمل لحسابها مع أمريكا .. أى أنه لم يكن عميلا أو جاسوسا يعمل تحت الأرض بل كان صديقا لكلا الطرفين .. بل أنه عندما اشتدت الأزمات كان يبذل مجهودا أثر فى محاولة خدمة الثورة .. ربما ليس بدافع الوطنية وحدها أو ايمانا بالثورة وحبا فى رجالها ولكن لأن بقاء أمريكا فى مصر بقاء له وضمان لأطماعه .. ثم أنه لاشك حقق كثيرا من الخدمات التى كانت تطلبها منه الثورة .. لعله كان له فضل فى تحديد موقف أمريكا الذى أدى إلى انسحاب القوات المعتدية عام ٥٦ .. ثم أن الثورة يمكن أن تفضل الاحتفاظ به سليما بعد أن انقطعت العلاقات مع أمريكا .. أنه لم يكن له دخل فى هذه القطيعة ولم يكن يتمناها .. انما هى نتيجة مباشرة للخط الذى اختارته الثورة .. ثم لعل الثورة تحتاج اليه لأن احتياج مصر لأمريكا لايمكن أن ينتهى نهائيا ..

لذلك لم تقدم الثورة على التفكير فى القضاء على برعى محمود رغم كل الاجراءات التى أتخذتها فى ابعاد أصدقاء أمريكا .. لم يعد مقربا .. ولكنه ظل محتفظ بحريته وبقدرته على التحرك ومزاولة نشاطه كرجل أعمال .. بل انه كان لايزال مستمرا فى عمليات الاستيراد من أمريكا .. ولو كان لم يعد يستطيع أحد استيراد الا المواد الاستهلاكية البسيطة لم تعد هناك مشروعات كبيرة تخص الدولة يمكن أن يتولاها ..

ولكن

ولكن برعى محمود لايزال خطرا على رفعت البيومى .. ومن يدرى .. قد يستطيع فى مرحلة قادمة أن يعود بأمريكا إلى مصر .. أنه خطر حتى لمجرد احتفاظه بقيمته وتقدير أهميته ..

وفكر رفعت البيومى وهدته عبقريته إلى لحن جديد بدأ يعزفه فى كل مكان .. اننا لانستطيع أن ننتقم من أمريكا الا بالقضاء على رجلها الأول برعى محمود .. وكان يردد هذا اللحن مع كل من يجلس اليه من رجال القيادة ويردده ضاحكا كأنه يلقى بنكتة حتى يبدو وكأنه لايقصد التخلص من برعى بدافع حقده عليه انما هو يقصد فقط الانتقام من أمريكا .. اننا إذا كنا نريد جلاء أمريكا فلن يتم جلاؤها عن البلاد العربية كلها الا بجلاء برعى محمود عنا .. ومضت شهور طويلة بلغت الأعوام وبرعى محمود لايزال محتفظا بحريته وأهميته .. بل انه عرف أن القيادة بدأت تعاود الاتصال به

سرا وتكلفه بالاتصال بأمريكا للوصول إلى معاملات لاتزال مصر فى حاجه اليها ولتصفية بعض المشاكل التى لاتزال قائمة .. ولاشك أن مهمة برعى فى هذه الأيام كانت صعبه فان الإدارة الأمريكية كانت قد فقدت ثقتها فى جمال عبدالناصر ولم تعد تقبل أى تعامل مع مصر الا إذا سقط عبدالناصر واختفى من مصر .. وقد عجز برعى عن اقناع الادارة الأمريكية بتعديل موقفها واثارة الأمل فى أن يعتدل عبدالناصر فى موقفه منها .. أنه ليس مركسيا .. ثم فجأة وبعد كل هذه الشهور .. وبعد أن كان رفعت البيومى نفسه قد فقد الأمل .. وأعلن فرض الحراسة على برعى محمود .. كل شىء يملكه أو يتبعه مدت الحكومة أصابعها اليه واستولت عليه .. واحتل رجال المخابرات مكتبه وفتحوا أدراجه .. ولم ينقضى يومين حتى قبض على برعى وقدم إلى المحاكمة .. هذه المحاكمات التى كانت تتم فى سراديب إدارة المخابرات .. محاكمات القصد منها استكمال الشكل ونتائجها معروفة مقدما .. وقد وصلت إلى رفعت تفاصيل هذه المحاكمات .. لقد واجهوه بتسجيلات عن كل المحادثات التى كانت تدور بينه وبين أصدقائه الأمريكان .. ويتهمه المحقق .. لقد كنت تطلب من الأمريكان كذا وكذا .. ويرد برعى فى هدوء قائلا .. لقد كنت أطلب ماتطلبه القيادة من الأمريكان وبناء على تعليماتها .. ويعود المحقق يتهم .. ان الأمريكان كانوا يقولون لك كذا وكذا .. ويرد برعى .. كل كلمة كنت أسمعها من الأمريكان كنت أنقلها إلى القيادة ..

ولكن التسجيلات بدأت تروى حكاية اتفاق بين برعى والأمريكان على احداث انقلاب فى مصر يطيح بجمال عبدالناصر .. وصاح برعى وهو يسمع صوته مسجلا .. لم أقل هذا الكلام .. هذا التسجيل مزور مزيف .. وانهالت صفعة قوية على قفاه .. كيف يكذب تسجيلا تقدمه المخابرات ..

وربما كان ما أدهش رفعت أن المخابرات جمعت بعض الشهود يشهدون ضد برعى ويؤكدون اتهامه وكلهم من رجال برعى نفسه .. كان صاحب الفضل عليهم وكانوا يعملون معه ويسيرون فى ركابه وليس لأحد منهم قيمة الا قيمة انتسابه الى برعى .. وبلغت الدهشة برفعت الى حد أنه بدأ يعانى من احساسه تجاه أصدقائه ومعاونيه هو الآخر .. من يدرى .. ربما وقفوا كلهم شهودا ضده اذا تغيرت الأحداث وقدم إلى مثل هذه المحاكمة ..

وقد بدأ يشفق على برعى .. انه هو السبب .. هو الذى أقنع قياده الحكم بأن الانتقام من أمريكا لايتحقق الا بالانتقام من برعى.. بل أنه خطر له أن يستغل اتصالاته للافراج عن برعى .. ولكن مستحيل .. أنه قرار اتخذه القائد الأعلى وهو قد تعلم أن يؤيد كل قرار يتخذه القائد الأعلى حتى لو لم يكن مقتنعا به .. لماذا يعرض نفسه لمجادلة القائد مما قد يفقده ثقته فيه .. لماذا يشوش دماغ القائد الرئيس وهو يعلم أن دماغه لن تعد تحتمل الدوشة .. ولم تعد تتسع

إلى أكثر من حريته المطلقة فى اتخاذ أى قرار .. وسكت رفعت وليحدث لبرعى ما يحدث حتى لو أعدم .. سكت وأن كان فى دخيلة نفسه يزداد خوفا وحرصا .. انه هو وبرعى يعملان عملا واحدا وأن اختلفت المجالات .. وما يحدث لأحدهما قد يحدث للآخر.. ولكنه واثق من عبقريته وذكائه .. ان ما يحدث لبرعى لايمكن أن يحدث له ..

ودون أن يتدخل أو ينطق بكلمة فى صالح برعى فوجىء بالافراج عنه بعد انقضاء أسبوعين على اعتقاله .. ولا يدرى لماذا أفرج عنه .. ربما استطاعت الادارة الأمريكيه أن تتدخل للافراج عنه نظير حل مشكلة من المشاكل التى لم تحل بينها وبين مصر .. ربما استطاعت أن تفرج عنه نظير كميه من القمح ترسلها إلى مصر .. أى دفعت ثمن الافراج بالدولارات .. وربما كانت قد سلطت أصدقائها من الرؤساء العرب الآخرين للتوسط لدى عبدالناصر للافراج عنه .. انه لايدرى .. ولكنه واثق من أن الافراج عن برعى ليس معناه اطلاق حريته واستعادته لمكانته وقوته .. بدليل أنه رغم الافراج عنه لم ترفع الحراسه عن كل ما يملكه ويتبعه .. أنه لن يعود الى قيمته الا اذا عادت أمريكا الى مصر .. وأمريكا لن تعود .. وقد يعود برعى الى السجن ..

ولكنه فوجىء بعد أيام باختفاء برعى من مصر كلها .. سافر

إلى أمريكا .. هل هرب .. أم أن الوسطاء الذين سعو للافراج عنه كانوا قد اتفقوا على أن يسمح له بمغادرة مصر ..

ومن يومها وأخبار برعى تصله من أمريكا .. لقد وصل هناك إلى أعلى مما كان قد وصل اليه فى مصر .. لقد أصبح رجل أمريكا فى كل البلاد العربية .. وهو من الأصل كان قد أقام صداقات قوية مع كثير من الرؤساء العرب .. وقد قام وهو فى أمريكا بجانب مسئولياته السياسية بكثير من الصفقات والعمليات مع هذه البلاد العربية .. عمليات أضخم بكثير من العمليات التى كان يقوم بها فى مصر .. أصبح صاحب ملايين الملايين ..

المهم ..

لقد أصبح رفعت بعد أن أزاح برعى من مصر هو الرجل الأول الوحيد .. ليس رجل الانجليز فحسب ولكن رجل قادة الثورة .. رجل الحاكم .. وقد بلغ من اعتزازه بفرحته انه اشترى من الحراسة الأرض الزراعية الواسعة التى كان يملكها برعى وكان يقيم عليها كثير من المشروعات .. أن ثمن الفدان كان قد وصل الى أكثر من خمسين ألفا .. ولكنه اشتراه من الحراسة بألف .. ولم يكن هو نفسه من هواة الزراعة ولا المشروعات الزراعية انه يكره الزراعه ويحتقرها منذ أيام كفر البطيخ .. ولكنه اشترى هذه الأرض كأنه يشترى برعى محمود .. فقط ليتمتع بانتصاره وبانفراده بالحكم ..

ولم يكن يستمد قوته من أنه أصبح الرجل الأول الذى يعتمد عليه الحكم فى هذا النوع من العمليات فقد استطاع أن يكتسب اعتماد الاتحاد السوفيتى أيضا عليه ..

وعاد رفعت يستعيد ذكرياته مع الروس ..

لقد ظل دائما حريصا على أن يتعامل معهم على أنه رجل أعمال لا أكثر .. وليس عميل معلومات .. ولكنه كان بين الحين والآخر يفوت لهم بعض المعلومات التى يقدر أنها تهمهم .. وكان يتعمد ألا يبدو عليه أنه يبلغهم بشىء هام .. كان يعطيهم معلومات خلال حديث عادى برىء كأنه مجرد صديق يقطع الوقت بالكلام .. ولا يعلق بشىء عندما يلحظ دهشتهم بما يسمعونه منه .. أو يبدى دهشته من كثرة الأسئلة التى يطرحونها عليه مع كل خبر .. أنه يتكلم دائما بلا مبالاة كأن الموضوع الذى يتحدث فيه لا يهمه مادام خارج عن اختصاصه كرجل أعمال كل ما يهمه التصدير والاستيراد .. وكان يفوت عليهم هذه المعلومات كرشوه نظير تسهيل أعماله .. وربما كان اصدقاءه الروس من رجال السفارة من الذكاء بحيث اكتشفوا أنه ليس بريئا ولا ساذجا ولكنه يتعمد ابلاغهم بالمعلومات ليثبت أنه صديق يعمل لحسابهم .. وقد رحبوا بهذه الصداقة التى تدر عليهم هذه المعلومات .. انها فعلا معلومات هامة خطيرة تصل أهميتها إلى أعلى المستويات .. ولاشك انه صدرت لهم تعليمات بتسهيل كل العمليات التى يقوم بها معهم .. وقد اتسعت عملياته

اتساعا واسعا .. أصبح يحتكر تصدير القطن المهم .. والأحذية .. والملابس الداخلية .. و .. و .. ويستورد منهم الآلات وسيارات موسكوفتش ..

ومعروف أن النظام السوفيتى يفرض أن تقوم المعاملات بين الحكومات مباشرة .. أى الغاء مهمة الوسطاء .. ولكن نظام مكتوب على الورق والواقع أن موسكو لها دائما وسيط يتحمل مسئولية التعامل بينها وبين أى حكومه أجنبية حتى لو كانت من الحكومات الصديقة .. وان كانت تفضل ألا يكون هذا الوسيط شركة من الشركات المعروفة ، إنما مجرد شخص صديق يمكن أن تعتمد عليه .. وهى تتمسك بالوسيط الذى تختاره الى حد أنها ترفض أن يتدخل فى عملياتها أى شخص آخر حتى لو كان هذا الشخص قد اختارته الدولة الأخرى .. وكان رفعت قد أصبح الوسيط الذى تعترف به روسيا وترفض أن تتعامل مع أى وسيط آخر رغم كثرة المحاولات التى قام بها البعض ليحلوا محله .. لم يكن رفعت هو الوسيط الوحيد كان أهمهم .. ثم أن المعلومات التى كان يقدمها رفعت كرشاوى لتوطيد علاقته بالروس وتسهيل عملياتهم معهم كان يستغلها أحيانا لحماية نفسه والتخلص من منافسيه الطامعين فى القضاء عليه .. كان فى احدى جلسات الصداقه ويتكلم ببساطة عن هذا الشخص .. أنه يعرقل أى عملية مع موسكو .. انه حريص على خدمة الصين .. لقد زار الصين أكثر من مرة وعاد يروى حكايات سيئة عن صور

الصين العظيم .. ويقول رفعت هذا الكلام وهو يضحك كأنه يتكلم عن أمر عادى أو كأنه يروى نكته.. ولكن المعلومات تؤثر فى رجال السفارة الروسية ويتدخلون بالضغط على الحكومة المصرية حتى تبعد هذا الشخص عن مركزه ومسئولياته .. لقد أبعد رفعت الكثيرين من كبار المسئولين وكان بينهم اثنان من الماركسيين الذين تولوا مركزا مهما جدا .. بل أنه استطاع أن يبعد أحد الوزراء .. لمجرد أن مثل هؤلاء الأشخاص لا يريدون الاستسلام له ..

وقد حقق أرباحا طائلة بتعامله مع الروس .. أنه الآن مليونير.. انه أبعد ثراء مما وصل اليه أحمد عبود باشا الذى كان يحلم به منذ قبل الثورة ولم يكن يتصور أنه يمكن أن يصل الى مثل ثراؤه يوم ما .. ولاشك أنه أصبح فى نفس مستوى ثراء عثمان أحمد عثمان .. وليست بينه وبين عثمان منافسة .. ان كل منهما يعمل فى مجال بعيد عن الآخر وبينهما صداقة عميقة .. صداقة يوطدها أن كل منهما يفهم الآخر وان كانا لايتصارحان بما يفهمه كل منهما ..

أن التعامل مع الروس يحقق الملايين كالتعامل مع أمريكا أو أى دولة أخرى .. كل عمليات التصدير والاستيراد تعنى التعامل مع ثلاثه أطراف والثلاثه يعيشون فى الملايين .. ولكن التعامل مع الروس متعب .. وهو تعب يتردد على ذهنه كلما تذكر أو كلما جلس جلسته يحادث نفسه ..

ان روتين الاجراءات التى تفرضها الادارة الروسية فى تعاملها روتين معقد .. وأشد ما فيه من تعقيد هو أنه قائم على الكذب المستمر والتحايل الخفى .. ان الكلمة التى تقال والورقة التى توقع غير ما يتم فعلا وغير ما تمتد به كل يد إلى الأخرى .. وقد كلفته بعض العمليات أن يقضى شهورا طويلة فى تعب وأن يسافر الى موسكو أكثر من مرة .. وكان التعب يبلغ به الى حد أن يقرر أن تكون هذه هى آخر عملية يقوم بها مع الروس .. ولكنه لايلبث أن يجد نفسه فى عملية أخرى .. ربما كان من طبيعته أنه لا يستطيع أن يكف عن المتاعب فى سبيل الوصول إلى أكثر .. وربما كان احساسه بأن الروس قد أصبحوا هم القوة المسيطرة على مصر .. كما كان الانجليز عندما بدأ فى شبابه الاعتماد على قوتهم .. وكما كان الأمريكان الذين كان يرعى محمود يعتمد على قوتهم وفشل هو فى اغتصابهم منه .. هذا الاحساس يجعله لا يستطيع أن يريح نفسه من متاعب الروس .. انه لا يستطيع أن يبتعد عنهم إلا اذا ابتعد عن مصر ..

وهو يدفع الرشاوى لكل الشخصيات الروسية التى يحتاج اليها سواء من موظفين أو خبراء .. انه لايسميها رشاوى .. أنها مجرد عمولات كالتى تعود أن يدفعها فى كل العمليات.. ولكن العمولات ممنوعة قانونا فى روسيا ولذلك تسمى رشاوى .. ويحوطها الخطر الذى قد ينتهى الى اعتبارها جريمة خصوصا اذا لم تكن

الحكومة راضية عن الشخص الذى تقضاها .. ورغم ذلك كان يتحمل المجازفة والا تعطلت كل العمليات .. وكان الموظفون الروس الذين يتقاضون عمولة يشترطون أن تدفع بالدولار .. وهم يهربون ما يحصلون عليه من الدولارات الى موسكو .. ان فى موسكو سوقا سوداء واسعة للعملات الصعبة أكبر عشرات المرات من سوق القاهرة .. وما كان يتعبه وينهك عقليته .. عقلية كبار رجال الأعمال .. أنه لم يكن يستطيع أن يضيف هذه الرشاوى أو هذه العمولات بصراحة فى كشف الحساب .. ويضيفها إلى ثمن البيع والشراء كما يفعل فى حسابات العمليات التى يقوم بها مع لندن .. ورغم أن ما كان يدفعه للروس أقل بكثير من نسبة ما كان يدفعه الى المتعاملين الانجليز .. الى أن كانت تكلفه أكثر بدفع المزيد وهو يتحايل حتى يرفع ثمن البيع أو يخفض ثمن الشراء استردادا لما دفعه .. أنها كلها عمليات متعبة منهكة ..

وربما كان ما يتعبه أكثر هو طبيعة أصدقائه الجدد من الروس. يبدو عليهم أنهم محرومون من الحياة الاجتماعية الخاصة بهم لذلك يتلهفون على أى مجتمع آخر يدعون اليه .. ولا يلبون الدعوة إلى عشاء أو غداء أو سهرة مع الاحساس بأنهم يؤدون واجبا اجتماعيا ثقيلا تفرضه عليهم مسئولياتهم الدبلوماسية ، بل يلبون الدعوة فى فرح كأنهم يقبلون على جلسة أو ليلة ممتعة خصوصا اذا لم تكن الدعوة خاصة بين الأصدقاء الأجانب .. ويفرطون منذ البداية فى

شرب الويسكى وفى الأكل ثم يبدأون فى التهليل والغناء والرقص بعضهم مع بعض .. وقد أصبح حتى يكسبهم يقيم فى بيته دعوة فى كل ليلة تقريبا .. دعوات خاصة ليس لها مناسبة رسمية .. دعوة أصدقاء .. وكان يدعو المتزوج مع زوجته .. حتى يؤكد أسس الصداقة .. وقد عادت عليه هذه الدعوات فعلا بتحقيق عدم الكلفة بينه وبينهم.. وحقق كثيرمن العمليات من خلال كؤوس الويسكى.. وزوجته آمال ماهرة كست بيت فى إعداد هذه الدعوات واشاعة جو عدم الكلفة بين المدعوين دون أن تسأل لماذا أصبح كل المدعوين من الروس .. لاشك أنه ما يتطلبه عمل زوجها ومحرج عليها أن تسأله عن أسرار عمله أو عن الدوافع والمظاهر التى يفرضها العمل .. تعودت ألا تسأل .. كل ما هى مطالبة به أن تقوم بواجبها كست بيت وأن تحقق النجاح لكل ما يجرى فى بيتها ..

ولكن رفعت بدأ يلاحظ أن صديقه فلاديمير ماركوف يبذل مجهودا أكثر من اللازم فى التقرب إلى زوجته .. أنه ينزوى بها فى أحد الأركان ويتبادل معها الحديث طويلا .. لعله يحدثها عن الأدب الروسى وآمال من هواة الأدب وتقرأ الكثير من القصص العالمية .. ثم يراه يمسك بيدها ويلعب بأصابعها وهما يتضاحكان .. لعله يعلمها لعبة كشف الحظ من خلال أصابع اليد .. وبدأ رفعت يشك فى تقرب افلاديمير إلى زوجته .. أنه شخصية مهمة من شخصيات التجاره ويملك تسهيل العمليات .. ولكن ليس معنى هذا أن

يستسلم له رفعت ويتركه يحاول هذه المحاولات مع زوجته .. وآمال بريئة واثقة فى نفسها إلى حد أنها يمكن ألا يخطر على بالها أن تشك فى نيات هذا الصديق.. يكفى أن تقوم بالترفيه عنه كواجب ست البيت .. حتى لو كان يطلب منها تحديد موعد لقاء خاص بينهما .. هل طلب منها موعدا .. ان آمال لا تشكو اليه من سفالة صديقه ولا تقول له شيئا عما يجرى بينها وبين المدعوين مادام ليس فيما جرى شىء يخصه ..

ولم يحتمل رفعت .. ما كاد يلحظ فلاديمير وهو ينزوى بآمال فى احدى الدعوات حتى ذهب وراءهما ووقف بينهما .. واشتدت المناقشة حول موضوع تافه وفلاديمير ينظر اليه فى ضيق كأنه يتهمه بأنه تعدى على اختصاصه بالوقوف بينهما إلى أن قال له بصراحه :

— لماذا لا تذهب وتتفاهم مع زوجتى وتتركنى أتفاهم مع زوجتك ..

ورد رفعت وهو يضحك ضحكة مفتعلة :

— إنى لا أتفاهم مع الزوجات ولكنى متخصص فى التفاهم مع الأزواج ..

وانتهت الليلة وسأل رفعت زوجته بعد أن اختليا :

— ما رأيك فى فلاديمير ..

وقالت آمال فى بساطه :

— لطيف ..

وقال وهو ينظر فى عينيها كأنه يحاصرها ..:

— ألم يتجرأ عليك ويعبر عن سفالته ؟

وقالت آمال وهى تبتسم فى براءة هادئة :

— أبدا .. انه يروى لى كثير من القصص والحكايات .. وأنت تعرف أنى أحب القصص ..

لعل آمال لا تريد أن اكشف عن سفالة صديقى حرصا على مصالحه معى .. حتى يستمر العمل هادئا .. ان الزوجه الذكية هى التى تحرص على صداقة زوجها مع من يعمل معهم ..

ورغم ذلك فقد قرر رفعت من يومها أن ينقل ليالى الدعوات من شقته المطلة على النيل الى الشقة التى فى جاردن سيتى .. وكان يدعو اليها أصدقاؤه الروس مع زوجاتهم أيضا .. ان شقة جاردن سيتى ليست جارسونيرة خاصة بالأزواج بلا زوجات وبالزوجات بلا أزواج .. انها شقة محترمة وان كانت لا تدخلها زوجته آمال .. منذ تزوجها لم تدخل هذه الشقة ربما لأنه حريص على أن يبعدها عن ذكرياته وحريص على أن يحتفظ لنفسه بحريته الكاملة داخلها .. انها شقة عازب .. ولكنه بدأ يدعو إلى ليالى جاردن سيتى نوعا من الزوجات المعروفات فى المجتمع الراقى .. مجتمع رجال الأعمال .. انهن زوجات متساهلات يستطعن أن يحيين حفلة بمجرد وجودهن..

ويدعون إلى كثير من مثل هذه السهرات بدل دعوة راقصة أو مطربة أو فرقة موسيقية لاحياء الحفل .. رغم أن كل منهن لها زوج محترم يتولى مركزا محترما .. وربما لم يصل الأزواج الى هذه المراكز إلا بفضل ذكاء الزوجات .. ان سميرة هانم تعرف بأنها تضحك دائما وصوت ضحكاتها يلعلع من أول الحفل حتى آخره .. وضحكاتها تلم حولها كل الرجال .. ربما تعودت هذا الافراط فى الضحك حتى تلهى الناس عن النظر الى صدرها .. ان نهديها كبيرتان جدا يبرزان فوق صدرها كمدفعين من المدافع المضادة للطائرات .. ولكن دمها خفيف إلى حد الاغراء وكأنه اغراء يدعوك الى التمتع به فى الفراش .. ورفعت يذكر يوم مرت على فراشه .. انها ممتعة .. وميرفت هانم زوجة رائعة الجمال .. ولكنه جمال بارد .. وهى تدخل إلى الحفل وتختار مكانا بارزا وتجلس فيه صامتة وبين شفتيها ابتسامة هادئة وعينيها الذكيتين الجميلتين تدوران بين المدعوين تفحصهم واحدا واحدا .. ومجرد وجودها صامتة يدفع كل الرجال إلى محاولة التقرب اليها يشدهم جمالها .. وهى تستقبل كل رجل حسب أهمية مركزه .. وتحدد مدى ما تعطيه .. بل مدى ما تسمح به من الجلوس بجانبها .. هل تتركه يحاول معها خمس دقائق أم عشره أم تحتفظ به طول السهرة إلى تحديد موعد للقاء الفراش.. انها ذكية .. وقد مرت على فراش رفعت .. انها باردة رغم جمالها كل قطعة منها ولكنها تبذل مجهودا كأنها بائع جيلاتى يحاول أن يمتعك بالكأس المثلج

الذى يقدمه لك .. و .. و .. كثيرات .. وكلهن يرحبن بالدعوه مع أزواجهن .. يكفى أن الداعى هو رفعت بيه البيومى ..

وقد أنطلق أصدقاؤه الروس أكثر فى ليالى جاردن سيتى .. كأنهم فهموا أن جاردن سيتى غير بيته فى شارع النيل .. وقال له صديقه فلاديمير فى أحد الليالى :

— أين زوجتك آمال .. أننا نفتقدها ..

وقال رفعت ضاحكا :

— انها تعتبر أنها هى التى ستدخل إمتحانات الجامعة وليس الأولاد لذلك فهى مشغولة فى المذاكرة ..

وقال فلاديمير ساخرا :

— ان الامتحانات ستنتهى يوما ما :

ولم يكن رفعت قد أبعد زوجته آمال عن كل لياليه ولكنه حصر اعتماده عليها فى إقامة الحفلات الرسمية فى شقة النيل التى يدعو اليها السفراء والوزراء ورجال الثورة والقيادة .. حتى يستريح من نزعات كفر البطيخ التى تثور وتضايقه كلما حاول رجل أن يقترب إلى زوجته ..

وقد فوجىء يوما بصديقه فلاديمير يتصل به ويقول فى بساطة ضاحكة :

— هل أستطيع أن أجد عندك مفتاح شقة خالية كشقة جاردن سيتى مثلا ؟

وقد دهش رفعت ولكنه أخفى دهشته وراء كلمات ضاحكة وأسئلة كثيرة يوجهها ضمنا إلى فلاديمير .. أنه يريد الشقة ليلتقى فيها بامرأة .. ولكن أى امرأه .. أن فلاديمير يرفض أن يصارحه .. لايمكن أن يكون قد وصل إلى اقناع زوجته آمال والا لبحث عن شقة لدى آخر .. ولكن ..

وقال رفعت فى التليفون كأنه يستسلم :

— سأرسل لك المفتاح ..

وألقى سماعة التليفون وقبل أن تشتد عليه شكوكه وحيرته دق جرس التليفون وسمع صوت صديقته الضاحكة سميرة هانم تقول من خلال ضحكاتها :

— ان صديقك الروسى الذى أسمه فلاديمير يلح كثيرا .. ماذا أفعل معه ..

وقال رفعت وقد أحس بالراحة كأنه أفاق من شكوكه وحيرته :

— لاتخيبى أمله .. أنه شخصية هامة .. كل أعمال السفارة بين أصابعه ..

ان سميرة ذكية .. أنها لاتقدم على لقاء فلاديمير الا بعد أن تستأذن رفعت حتى تتأكد من أن هذا اللقاء لايتعارض مع أعماله ..

ومن يدرى .. ربما لو التقت به سرا ثم كشف رفعت عن السر لصب عليها غضبه .. وغضب رفعت يخرب البيوت ..

وبعد يومين عادت سميرة واتصلت به وقالت ضاحكة :

— ان أصدقاءك الروس لايستحقون شيئا ولا حتى لمسة يد .. هل تدرى ماذا أهدانى صديقك فلاديمير .. عروس من الخشب لايمكن أن يتجاوز ثمنها فى بلادهم عشرة قروش ..

وضحك رفعت قائلا :

— أنهم بخلاء .. ولكنهم معذورون .. أنهم مفلسون ..

وقالت سميره وضحكتها تلعلع فى التليفون :

— لعلهم يؤمنون بالعدالة الاجتماعية حتى فى حجرة النوم .. أنه يتصور أنه أعطانى بقدر ما أعطيته .. متعنى بنفسه كما تمتع بى ..

وقال رفعت فى صوت جاد وقد كف عن الضحك ..

— سأعوضك من بخل فلاديمير ولكن أحرصى عليه .. أنه يهمنى ..

* * *

واستمرت علاقته بالروس قوية وطيدة .. أنه رجل الروس الأول .. وذلك دون أن يفرط أو يستهين بعلاقته بلندن .. لقد عادت العلاقات الدبلوماسية وفتحت السفارة البريطانية وعاد اليها

نفس موظفيها أو أغلبهم .. ومن بينهم صديقه مالوكولم .. ان كل كلمة تصل اليه يبلغها لمالوكولم .. .. وبعضها يبلغا هى نفسها لموسكو .. أنه عبقرى .. أعجوبه الاتصالات الدولية ..

واستعاد رفعت الذكرى التى تتردد كثيرا على عقله .. ذكرى اليوم الذى فوجىء فيه بقرار من موسكو بنقل كثير من موظفى السفارة الروسية فى مصر .. أن موسكو لم تعلن أن السبب فى نقلهم هو تقاضيهم الرشاوى بل أنها لم تعاقب أحداهم بل اكتفت بنقلهم الى وظائف داخل موسكو أو فى سفارات أخرى .. وهو قد عرف السبب الحقيقى لهذا النقل .. واحتار فى تشكيل أسلوبا جديدا معهم وعلى قدر همه فرح بأن صديقه فلاديمير قد قرر النقل .. لقد كان جريئا تجاه شهواته .. وقد استراح منه .. ثم فوجىء باستدعائه إلى ادارة المخابرات .. وقال له المدير من خلال ابتسامة واسعة بعد أن أستقبله بترحاب كبير :

— انك متهم بأنك تدفع رشاوى لرجال السفارة ..

وكان رفعت صريحا .. انه يعلم أن العلاقات بين مصر وروسيا رغم كل مظاهر التحالف والصداقة يجرى فيها تيار تحتى من الحقد

والغيظ وعدم الاطمئنان المتبادل .. لذلك فهو لايهمه أن يكون صريحا مادام لا يقوم بعمليات ضد أو تعرقل خط الثورة .. قال :

— انى أدفع عمولات كالتى تدفع فى كل العمليات مع كل الدول .. ولا تصدقوا أن روسيا ترفض العمولات كل ما هناك أن القانون يسميها هناك رشاوى ..

وقال مدير المخابرات فى هدوء ::

— أننا نرى أن تتوقف عن التعامل معهم إلى أن يتضح موقفهم بالنسبة لك .. فهناك ضجة خفية حولك هذه الأيام ..

وامتنع رفعت فعلا عن الاتصال بأصدقائه فى السفارة أو بأصدقائه فى موسكو بل أنه أوقف حتى العمليات التى لم تتم .. ومن يدرى .. ربما كانوا يبحثون عن وسيط آخر يتولى عملياتهم .. لايهم .. مهما أبعدوه فان ما جمعه من التعامل معهم يكفيه ويستطيع أن يعود ويفتح أبوابا جديدة للتعامل مع لندن ..

لم تنقض أسابيع حتى بدأ رجال السفارة الجدد يتصلون به .. ان موسكو لم تتخل عنه .. انها لايمكن أن تتخل عن صديق سبق أن تعاملت معه ونجح فى تعامله معها .. وفرح رفعت بعودة موسكو

اليه .. ولعل رجالها الجدد لن يتعجبوا بتقاضى العمولات .. أى الرشاوى .. ولكن أبدا .. لم يتغير شيء .. أن الجدد يأخذون حتى وهم فى انتظار نقلهم إلى بلاد أخرى ..

وكانت الأزمات قد بدأت تشتد بين مصر وروسيا .. دائما نفس الأزمات .. أزمات حول التسليح .. نفس الأزمات التى سبق أن فصلت بين مصر وأمريكا .. وبذل رفعت مجهودات كثيره فى محاولة زج نفسه فى حل هذه الأزمة .. وهو دائما حريص على أن يثبت أنه بجانب المطالب المصرية .. ولكن لا أمل .. إن روسيا لا تتعامل فى السلاح كمجرد عمليه تجارية تعود عليها بربح ضخم هائل .. أنها أولا عملية سياسية .. والسياسة الروسية لا تسمح إلا باعطاء مصر هذا النوع من السلاح ..

وحدث أن عرف رفعت أن مصر تطلب استيراد أنواعا معينة من معدات الرادار .. وروسيا لا ترفض صراحة ولكنها تماطل مماطلة إلى اليأس .. وبجهود رفعت التى يبذلها فى دراسة كل عملية اكتشف أن نفس معدات الرادار تصنع فى بريطانيا .. ليست هى بالذات ولكنها تقوم بنفس المهمة وربما على مستوى أفضل .. واعتمد على جرأته وعرض على القيادة أن يستورد لها هذه المعدات من لندن ..

وترددت القيادة طويلا اعتمادا على روسيا ولكن أخيرا بعد أن اشتد بها اليأس وافقت .. ووافقت لندن بسرعة على تصدير هذا السلاح إلى مصر .. ان السياسة عندهم تقدر قيمة الأرباح التى تعود على الدولة .. ولاشك أنها سياسة تؤيد اشتراك بريطانيا مع روسيا فى توريد السلاح إلى مصر .. إن السياسة تريد أن تعود بريطانيا إلى مكانتها القديمة فى مصر ..

وحرص رفعت على أن يبلغ الخبر لموسكو بطريقته الخاصة .. أنه سيستورد لمصر معدات رادار من لندن .. أنه يريد أن يطمئن إلى موقف موسكو .. وقد اطمأن .. أن موسكو لم تعترض ولم تتدخل لدى القيادة العليا .. بل ربما كانت تعرف بالخبر قبل أن يصلها منه .. سياسة غريبة .. كيف ترفض موسكو تصدير هذا السلاح إلى مصر بينما تسكت على أن تقوم مصر على استيراده من لندن ..

وتمت الصفقة ..

وفرح بها رفعت البيومى كما لم يفرح من قبل بأى عملية حققها.. انها أول صفقة سلاح يحققها وأرباحها هائلة توازى أضعاف أضعاف أرباحه من العمليات التى كان يحصر نشاطه فيها .. يجب

أن يتفرغ منذ الآن لصفقات السلاح .. ثم أنها أول صفقة لاستيراد السلاح من خارج روسيا لعل رفعت هو صاحب الفضل فى أسس المبدأ الذى ساد مصر بعد ذلك وأصبح شعارا لمصر .. مبدأ حرية استيراد السلاح وتعديد مصادره ..

• • •

والأزمات تشتد بين مصر وروسيا ..

وقفزت خواطر رفعت البيومى فجأة إلى أبعد مما كانت فيه ..

لقد عاد برعى محمود إلى مصر بعد أن غاب عنها وعنه أكثر من عشر سنوات ..

وبدأت معركته الكبرى ..

(٨)

لم تكن الأحداث التى وقعت عام ٦٧ وانتهت بمصر إلى الهزيمة العسكرية لها أثر فى حياة رفعت البيومى .. لم يكن هناك ما يربطه بهذه الأحداث أو بهذه الهزيمة من قريب أو بعيد .. ولم يكن يعتمد على شلة عبدالحكيم عامر حتى يفقد شيئا بفقدانه .. صحيح أن الهزيمة صدمته كمصرى لايستطيع أن يتجرد من مصريته خصوصا وأنه كان يجارى كل الأكاذيب التى كانت تعلن قبل المعركة رغم أنه كان يعلم أن بعضها هى فعلا أكاذيب الا أنه لم يكن يتصور أن تصل النكبة إلى هذا الحد .. بل أنه حتى بعد أن بدأت اسرائيل بالضربة الأولى وكانت ضربة ساحقة ظل معتقدا أن مصر ستضرب الضربة الثانية أعنف وأشد سحقا !.. ولكن خاب أمله .. لايهم .. المهم أنه لايحمل أى مسئولية من مسئوليات هذه الأحداث .. وإذا

كانت الرئاسة تعرف أنه لايزال رجل الانجليز فى مصر فان الانجليز أيضاً لم يكن لهم دخل فى هذه الأحداث .. ثم أن الأزمات مهما اشتدت بين مصر وروسيا وخصوصا بعد المعركة فان روسيا تعتقد أنه مجرد رجل أعمال رغم العمليات التى كان ينقلها اليه على سبيل الرشوة .. ولايمكن أن تحمله أى مسئولية فى هذه الأزمات وتحرمه من التعامل معها .. ثم أن الرئاسة المصرية تعلم أنه ليس ماركسيا وليس من رجال روسيا فى مصر رغم تعامله معها فلايمكن أن تفكر فى المساس به .. ان رجل الأعمال العبقرى يستطيع أن يجارى الهزيمة كما يجارى الانتصار دون أن يمس شخصه أو أعماله أى شىء .. ولاشك أنه عبقرى ..

وقد اتسعت أعماله بعد الهزيمة ..

إن مصر أصبحت أكثر حاجة إلى روسيا ليس فقط فى استيراد السلاح ولكن فى استيراد مطالب الحياة .. كاستيراد المواد الغذائية والملبوسات وإتمام المشروعات التى لم تتم .. وهو لايتعامل مع روسيا فى عمليات استيراد السلاح ولكنه يتعامل معها فى كل عمليات استيراد مطالب الحياة .. اتسعت عملياته حتى أصبح وكأنه يسيطر على كل مصر .. وأكثر من ذلك .. فقد كان نجاحه فى إتمام صفقة استيراد معدات الرادار من بريطانيا دافعا لأن تبدأ القيادة فى التفكير فى استيراد أنواع أخرى من السلاح من خارج

روسيا .. وقد عرضت عليه هذه الأنواع واختار منها عملية استيراد طائرات الميراج من فرنسا .. انها صفقة ضخمة .. ملايين الملايين .. وربما أستطاع بعدها أن يتفرغ للتخصص فى استيراد السلاح .. وقد قضى شهورا يبذل مجهودا ينهكه ويسافر بين كل حين وآخر إلى باريس لاتمام الصفقة .. ولكنه لم يستطع اتمامها .. كانت العلاقات الجديدة التى قامت بين عبدالناصر والدول العربية قد دفعت بعض هذه الدول إلى امداد مصر بهذه الطائرات .. لايهم .. هناك أنواع أخرى من السلاح .. واستيراد السلاح أتسع حتى أصبح وكأنه استيراد الحياة ..

وما أزعج رفعت أيامها أنه عرف من خلال السراديب التحتية أن هناك اتصالات بدأت الرئاسة تقوم بها مع برعى محمود فى أمريكا .. هل يمكن أن يعود برعى إلى مصر .. أنه لو عاد لقضى عليه وأطاح به من فوق عرشه الذى يتباهى به منذ سنوات .. فبرعى فى هذه الأيام ووسط هذه الظروف يعتبر الأقوى .. أنه صديق أمريكا والرئاسة بدأت تؤمن بأنها لاتستطيع أن تواجه مشاكلها وهى تعادى أمريكا .. وقد يستطيع برعى أن يعود بأمريكا إلى مصر .. ثم أنه على علاقات قوية مع كل البلاد العربية الصديقة لأمريكا والتى أصبحت مصر تتودد اليها وتتقارب منها إلى حد تقبيل الأيادى .. وسيكون برعى قوة فى تأكيد واستغلال هذه العلاقات .. ومن يدرى ربما كان له دخل فى التأثير على هذه الدول العربية فى

إمداد مصر ببعض الأسلحة والطائرات .. ان برعى يتدخل باسم أمريكا وهذه الدول لايمكن أن تتصرف دون موافقة أمريكا .. وقد حاول رفعت كثيرا أن يتقرب ويتعامل مع هذه الدول العربية .. ولكنه لم يستطع أبدا أن يصل إلى مثل قوة برعى .. ربما لأنه ليس محسوبا أنه من رجال أمريكا ..

وقد حاول رفعت أن يخفف من جزعه وانزعاجه فاقنع نفسه بأن الإدارة الأمريكية لايمكن أن تعود للتعامل مع عبدالناصر .. هذه هى سياسة الطبيعة الأمريكية .. إذا وصلت إلى قمة اليأس ترفض أن تعود إلى تقدير الأمل .. ولاشك أن برعى يقدر ذلك .. فاذا كانت أمريكا ترفض العودة إلى مصر فهو نفسه لن يعود ..

إلى أن وقعت فوق رأس رفعت المصيبة الكبرى ..

ذهب جمال عبدالناصر .. مات ..

وأحس رفعت البيومى فى نفس اللحظه التى سمع فيها خبر موت عبدالناصر بأنه هو شخصيا انتزع من مكانه وأصبح معلقا فى الهواء ولايدرى متى يعود ويستقر على الأرض .. ولا أين يعود ويستقر ..

انه منذ بداية الثورة وقد ربط كل حياته بعبد الناصر .. بقوة الحاكم .. وكان من الذكاء بحيث يقدر أنه لن تقوم فى الثورة كلها قوة بجانب قوة عبدالناصر .. سيبقى هو دائما القوة الوحيدة ..

وكان بالنسبة للآخرين يساير من يسايرهم عبدالناصر ويقربهم ويعتمد عليهم .. ويبتعد عن كل من يغضب عليهم عبدالناصر ويبعدهم .. ولكنه كان دائما حريصا على ألا يدخل فى أى معركة يمكن أن يرميه فيها ارتباطه بعبد الناصر .. لقد تباعد عن عبداللطيف البغدادى وزكريا محيى الدين وكمال الدين حسين و .. وكل من ابتعدوا عن عبدالناصر .. رغم صلاته القوية التى كانت بينه وبينهم .. ورغم أنه كان حريصا على مراضاتهم واكتسابهم .. ولكن كلهم لم يغضبوا عليه لتباعده ولم يعلنوه بنقمتهم واحتقارهم له .. لعلهم يعتبرونه كأنه ليس صاحب رأى ولا صاحب موقف .. إنه رجل أعمال .. خادم من يعمل معه .. وربما عاد اليهم وبذل ما كان يبذله فى مراضاتهم إذا عادوا هم إلى سلطانهم واحتاجوا اليه فى أعمال .. حتى أيام عبدالحكيم عامر وإلى أن بدأت الأزمة الخطيرة بين رئاسة الحكم ورئاسة الجيش .. ظل محتفظا باطمئنان عبدالحكيم اليه أو على الأقل بوقوفه خارج المعركة رغم أنه كان يبذل كل طاقته لتأييد عبدالناصر حتى ينتصر على عبدالحكيم .. طاقته التى يستمدها من الانجليز ومن الروس ومن قوته كرجل أعمال يستطيع أن يقدم كل أنواع الخدمات .. أن عبدالناصر قوة مسيطرة على أدق تفاصيل ما يجرى فى مصر .. كأنه أصبح الأكسجين الذى تتنفس به مصر .. وهو يذكر صديقه الذى كان مديرا لمكتب عبدالناصر وقفز به عبدالناصر حتى عينه رئيسا للوزراء .. وفى يوم

التى به وطال بينهما النقاش حول احدى العمليات فقال له الصديق وهو يتنهد .. « هل تعتقد أنى رئيس للوزراء .. أبدا .. إنى لازلت مدير مكتب الرئيس » .. وهكذا كان كل من يتحملون المسئولية فى أيام عبدالناصر .. كلهم ليسوا أكثر من سكرتارية فى مكتب عبدالناصر .. لذلك فهو لايمكن أن يعيش بعيدا عن عبدالناصر .. وكان عبدالناصر نفسه يقدر فيه كل ذلك فظل محتفظا به يقربه اليه حتى أخر أيامه .

والآن ..

كيف يرسم علاقاته واتصالاته بالرئيس الجديد ..

أنه يعرف أنور السادات معرفة شخصية منذ بداية الثورة ولكنه فى الواقع لم يكن يركز على هذه المعرفة ويحيطها بشىء من الاهتمام أو التعال الذى كان يبذله لباقى المحيطين بعبد الناصر .. لم يلهمه ذكاءه بأن السادات يمكن أن يصل فى يوم من الأيام إلى كل هذه القوة .. ربما لأن عبدالناصر نفسه كان يعامل السادات معاملة فاتره ولا يقدر له شخصية قوية يمكن أن يعتمد عليها وينفرد بها عن باقى الشخصيات .. كل شىء حدث نتيجة ظروف ومفاجئات لم يستطع ذكاء رفعت أن يلاحقها .. وقد حاول منذ البداية أن يضع نفسه بالنسبة للحكم الجديد فى نفس المكانة التى عاش بها خلال الحكم القديم .. ولكن مستحيل ..

ان كل شىء يتغير ..

وهذا مفروض ..

أنه لايمكن أن ينتظر أن تكون طبيعة شخصية أنور السادات هى نفس طبيعة جمال عبدالناصر .. ولانفس العقلية .. ولا نفس أسلوب الحكم ..

وقد استقبله أنور السادات بعد أن تولى الحكم بترحاب كبير .. وبدى كأنه قرر الاعتماد عليه كما كان عبدالناصر يعتمد عليه .. ولكن رفعت لم يطمئن إلى هذا الترحاب ولم يصدق نفسه وهو يتخيل أن الحكم سيستمر فى الاعتماد عليه .. وقد فوجىء بسرعة أن الحكم بدأ يعتمد على غيره فى نفس الأعمال التى كان يقوم هو بها .. وينفرد بها .. سحب منه السادات حق الاحتكار والانفراد بهذه الأعمال .. وهل لم يعد فى حاجة إلى هذه المعلومات الهامة التى تعود أن يقدمها للهيئة الحاكمة حتى تصل إلى الحاكم .. لعل الشخصيات الجديدة التى أصبحت تحيط بالحاكم هى التى دفعت إلى محاولة الاعتماد على غير رفعت .. أو على الأقل ألا يعتمد على رفعت وحده .. وقد حاول أن يمد اتصالاته بهذه الشخصيات الجديدة ورغم أنه أحس أنه استطاع أن يكتسب بعضها الا أنه لايستطيع أن يعود بهم إلى الاطمئنان الذى كان يعيش أيام عبدالناصر .. أنها شخصيات لايمكن أن تكون لها قيمة الا من داخل قيمة السادات .. ولعلهم يعلمون أنه ليس له هذه القيمة العظمى فى تقدير السادات كما كانت له فى تقدير عبدالناصر .. والفرق كبير .. ان الحاكم

لايستطيع أن يعتمد الا على من له فضل عليهم.. وقد كان عبدالناصر صاحب فضل عليه .. هو الذى شمله برعاية الثورة .. وهو الذى سكت على صداقته للانجليز .. هو الذى فتح له كل هذه الحرية التى حقق بها مشروعاته .. وهو الذى كلفه بمهام كثيرة رفعت من مركزه وقيمته فى البلد وبين كل الدول الأجنبية التى يتعامل معها .. فماذا يستطيع السادات أن يقدم له من فضل حتى يأسره بفضله عليه .. لا شىء .. ان كل ما يستطيع أن يقدمه هو الاستمرار فيما كان يقدمه له عبدالناصر .. أى سيبقى السادات دائما معقدا يعتبر نفسه أنه ليس صاحب فضل على رفعت .. وسيبقى رفعت فى نظره كأنه رجل عبدالناصر .. والسادات معذور .. إن من طبيعة الحاكم أن يبحث عمن يأسرهم بفضله عليهم ..

كان كل ذلك يعصف بخواطر رفعت البيومى ويحاول أن يتسم بينه وبين نفسه ابتسامته المغرورة حتى يخفف من جزعه ويستعيد اطمئنانه .. وهو يستطيع أن يطمئن .. أن روسيا لاتزال فى مصر .. وروسيا لم يهتز اعتمادها عليه .. ويلاحظ أن أصدقاؤه فى السفارة بدأوا يترددون عليه أكثر ويكثرون من أسئلتهم التى يوجهونها اليه وكأنهم أصبحوا صرحاء من اعتباره مصدر معلومات لا مجرد رجل أعمال .. ومادام الروس يعتمدون عليه فلن يفكر الحكم فى الاستغناء عنه .. وهذه الشخصيات التى أتوا به وعهدوا اليهم ببعض أعماله لا تساوى شيئا .. أنه مع الأيام يستطيع أن يقضى

عليهم ويتخلص منهم ويعود إلى احتكاره لكل شىء .. لكل عملية ..

إلى أن فوجىء بطرد الروس من مصر.. طرد القوات السوفيتية والخبراء السوفيت .. أنه لم يقتنع أن يحصل على أى معلومات مسبقة يبلغ بها الروس والانجليز رغم اتصالاته متى كان قد وصل اليها مع الكثيرين من الشخصيات الحاكمة .. ربما كانوا هم أيضاً لم يعلموا بشىء مقدما .. وانفرد بالقرار أنور السادات لنفسه إلى أن فاجأه به بدليل أن بعض الوزراء قدموا استقالاتهم لأنهم لم يتحملوا المفاجأة ..

وأحس رفعت بالضعف أمام أصدقاؤه الروس .. أنه لم يخدمهم بخبر طردهم مقدما حتى يستعدوا له .. وأحس كأنهم بدأوا ينظرون اليه كأنه رجل أعمال عادى ليس لديه مايمكن أن يدفعهم إلى الاعتماد عليه نظير تسهيل عملياته .. بل أنه أحس كأنه أصبح ضعيفا بالروس .. لم تعد لهم القوة التى يمكنه الاعتماد عليها .. ربما كان من الأفضل له أن يبدأ فى التباعد عنهم ..

وقد بدأ يحس أكثر أنه أصبح هو نفسه مبعدا عن الحكم .. ان أصدقاءه يستقبلونه فى فتور .. ويتعمدون أن يكون الحديث معه عاديا لايكشف عن أى سر من الأسرار رغم استمرار تحايله حتى يكشف عن أى سر .. وهو يعلم أن الحرب ستقوم .. مصر ستهاجم اسرائيل .. ولكنه لايعلم من أكثر مما يقرأه فى الصحف :: صحيح

أنه يستطيع الحصول على بعض التفاصيل .. ولكنها تفاصيل لاتؤكد له حتى ستقوم هذه الحرب ولا كيف ستبدأ .. ثم لا أحد مع المسئولين يتصل به ليشترك فى تغطية مطالب هذه الحرب ولا باستيراد المواد الغذائية التى يمكن أن تؤمن بطون مصر أيام الحرب إذا كانوا لايريدون تكلفته بالتدخل لاستيراد أسلحة .. لقد فقد كل ما كان له من مكانة ومسئوليات أيام عبدالناصر ..

وقرأ أخبار حرب ٧٣ فى الصحف وزاد عليها كلمات من مصادر أخباره .. كلمات لاتلبث أن تكون على أرصفة الشوارع ولاترتفع إلى قيمة الأسرار ..

إلى أن فوجىء المفاجأة الكبرى ..

عاد برعى محمود إلى مصر ..

عادت أمريكا ..

وقد عاد برعى وكأنه يحمل على رأسه صولجان النصر .. لقد انتصر فعلا .. ومن يدرى ربما كان يعمل مع أمريكا فى تحقيق هزيمة ٦٧ ولايزال يعمل معها فى كل الاتصالات التى أعقبت حرب ٧٣ .. وعقب وصوله بساعات صدر قرار بالغاء الحراسة التى كانت مفروضة عليه .. وردت له الحكومة كل ممتلكاته وكل مشروعاته وكل مكاتبه .. والممتلكات التى كانت الحكومة قد تصرفت فيها بالبيع ولم تستطع أن تردها اليه دفعت له تعويضاً عنها ..

دفعت بسخاء عجيب .. ان قطعة الأرض التى كان يملكها والتى اشتراها رفعت من الحراسة ولم يدفع فيها أكثر من عشرة آلاف جنيه دفعت له الحكومة تعويضاً عنها مليون جنيه .. سخاء عجيب.. كأنها كانت تدفع لأمريكا لا لبرعى ..

ومنذ وصل ورفعت يعلم أنه على أتصال مباشر مستمر مع الرئاسة .. اتصال لاينفع يوما ولا ساعة .. وفى الوقت نفسه بدأ فورا فى الاعداد لمشروعاته .. لقد دعا إلى مصر فريقا من كبار المموِّلين الأمريكان وأعد لهم لقاءات مع المسئولين قدموا خلالها مشروعات برؤوس أموال تصل إلى ملايين الملايين .. ورفعت مذهول حائر أمام طغيان برعى .. ولاشك أنه بعد أن يجد الوقت الكافى سيتفرغ للقضاء عليه .. سينتقم لنفسه .. سيدخله السجن أو يطرده كما سبق وتسبب هو فى سجنه وطرده ..

ولعل الكارثة قضت على ذكاء رفعت .. فهو لايستطيع أن يعتمد على عبقريته فى ايجاد الوسيلة التى يواجه بها طغيان برعى .. ووجد نفسه يعود إلى كلام سبق أن أعتمد عليه مجده .. بدأ يردد فى كل مناسبة تجمعه بأحد المسئولين أنه متأكد من أن أمريكا لايمكن أن تعتمد على أنور السادات .. لايهمها أن تغير رئيس برئيس .. أنها تريد أن يتغير نظام الحكم كله ليكون قريبا من النظام الأمريكى والنظام الأمريكى يقوم على نوع من الديموقراطية وتعدد الأحزاب.. والدليل أن رجلها برعى محمود بدأ يتصل بالوفديين ويلتقى بفؤاد

سراج الدين .. بل انه يتصل بشخصيات سياسية قديمة لم يكن لها صلة بالثورة وليس لها علاقة بالنظام القائم ..

ولكنه لم يحس بأثر لما يردده على مصير برعى محمود .. والأعجب من ذلك رغم أن ما كان يردده كان فيه كثير من المبالغة وكثير من المعلومات المفتعلة المقصود بها التوقيع بين الحكم وبرعى .. رغم ذلك وجد أن الحكم نفسه يتجه نفس الاتجاه الذى كان يحذر منه فيما يردده .. أن الرئاسة بدأت تتصل فعلا بالوفديين وبالشخصيات السياسية القديمة .. وبدأت تعلن عن الديموقراطية وتمهد لنظام تعدد الأحزاب .. غريبة .. لعله لم يفقد ذكاءه وأن ما كان يردده للوقيعة لم يكن سوى تعبير عن الواقع المنتظر الذى ينبض به ذكاؤه .. واقع عودة أمريكا إلى مصر ..

وقد حاول أن يقيم اتصالات مع الأمريكان .. ولكنهم يعاملونه معاملة غريبة ليس فيها حتى مجرد النفاق الدبلوماسي .. لقد كانوا أيام زمان يعرفون كل شيء عنه .. كانوا يعرفون أنه رجل الانجليز .. ورغم أنه كان يحس بعدم حاجتهم اليه الا أنهم كانوا يحترمونه ويجاملونه بالمظاهر الدبلوماسية .. ولكنهم بعد أن عادوا يصرون على تجاهله تجاهلا يحمل معنى الاحتقار .. حتى أنه لم يستطع الوصول الا إلى صغار موظفى السفارة وصغار الشخصيات التى أصبحت القاهرة تزدحم بهم ويعرف أن معظمهم نصابين جاءوا للنصب على الحكومة المصرية بعمليات زائفة ..

لماذا لايتصل برعى محمود نفسه ..

ان برعى لايمكن أن ينسى ما كانت عليه قيمته وقوته .. لقد كانت القيمة والقوة تعرف باسمه .. اسم رفعت البيومى .. ولاشك أن برعى وهو رجل أعمال يقدر الواقع ويعرف أن رفعت لايزال يحتفظ ولو ببعض قيمته وقوته .. ومن شيمة رجال الأعمال أن ينسوا أو يتجاهلوا الاساءة التى تقع عليهم مادامت مصالحهم تتطلب منهم النسيان والتجاهل .. ولعله سيفتعل تجاهل اساءة رفعت له ..

ولم يكن رفعت يعرف رقم تليفون برعى الخاص المباشر .. ثم عرف أنه يغير رقم تليفونه الخاص كل يوم أو يومين تقريبا .. لقد كان جمال عبدالناصر أيضاً يغير رقم تليفونه الخاص كل يوم وأحيانا يغيره مرات من اليوم الواحد .. ولكنه كان رفعت يبلغ بهذا التغيير فورا .. أن برعى محمود يضع نفسه فى مستوى عبدالناصر .. لايهم ..

وكان يحاول الاتصال به عن طريق السكرتارية .. سكرتيرته وسكرتيرة برعى .. وقد مضت أيام قبل أن يستطيع أن يحدد موعد لقاء .. ولم يتحدد الموعد فورا ولكن بعد خمسة أيام من موافقة برعى على لقائه من خلال اتصالات السكرتارية .. كأن رفعت شخص عادى ليس له أهمية تدفع إلى لقائه فورا ..

واستقبلة برعى محمود فى برود رغم ما كان معروفا عنه من المبالغة فى المحاملة خلال اللقاءات .. هل تغير برعى بعد سنوات الحرب التى قضاها فى أمريكا ، أم أنه أصبح يعتقد أن رفعت لايستحق حتى مجرد هذه المحاملات الكاذبة ..

وقال برعى من خلال ابتسامة ضيقة مرة ساخرة ودون أن يقف لاستقباله ويشير بيده فى اهمال إلى المقعد المجاور ..

— أهلا .. تفضل ..

وقال رفعت وهو يبتسم ابتسامة كبيرة تقطر بكل ما فيه من نفاق :

— إنى أسف لتأخرى فى تهنئتك بالعودة .. والواقع إنى حاولت الاتصال كثيرا لتحديد هذا الموعد ..

وقال برعى وهو يقلب فى أوراق أمامه كأنه لايحس بوجوده :

— مشغول .. الأعباء كثيرة ..

وقال رفعت فى استسلام ..

— أعرف .. وقد جئت لتهنئتك وفى الوقت نفسه أرد دينا لك على .. فأنت تعلم انى أثناء غيبتك أشتريت مزرعتك من الحراسة :: كنت أعلم مدى اعتزازك واهتمامك بهذه المزرعة وقد خفت عليها أن تبقى تحت سيطرة الحكومة فاشتريتها لأحفظها لك ::

وقال برعى دون أن ينظر اليه ..

— لقد دفعت لى الدولة ثمن هذه المزرعة ..

وقال رفعت وكأنه يتوسل :

— ان الثمن مهما كان لايغنى عن المزرعة وهى تحت أمرك ::

وقال برعى وهو يلوى شفتيه امتعاضا :

— لم أعد فى حاجة اليها .. ولم تعد تصلح بعد عشر سنوات من دخول أيدى غريبة عليها .. ومن الأجدى أن أبدأ فى اقامة مزرعة أخرى ..

ثم أخفى الورق الذى كان يفتعل قراءته ومن بين يديه واستطرد قائلا فى حدة :

— اسمع ياسيد رفعت .. لـ نتكلم بصراحة .. انى أعرف عنك أكثر مما تعرف عنى .. واعرف أيضاً الأغراض التى دفعتك إلى طلب مقابلتى .. وإذا كنت ذكيا كما يقال عنك فان ذكاؤك يجب أن يقصر نشاطك وتحركاتك وأهدافك على شئون نفسك ولاتحاول التعرض لى أو المساس بى .. كن فى حالك واتركنى فى حالى .. وليس فى كل مرة تسلم الجره كما يقال ..

وقال رفعت فى انهيار :

— صدقنى أنى لا أحاول المساس بك ..

وقاطعه برعى محتدا أكثر :

— انك لاتزال تحاول ماكنت تحاوله أيام زمان .. وقد عرفت أنك تقول عنى أنى أدبر محاولة لقلب نظام الحكم وقاطعه رفعت وصوته يتلجلج :

– أبدا .. لاشك أنه كلام وصلك محرفا .. و ..

– وقاطعه برعى وهو يخبط على مكتبه بيده :

– لاجدوى للانكار .. إنى واثق مما أقول .. وأحب أن أقول لك انك خدمتنى بما قلته عنى فمجرد اثارة كلامك أعطانى الفرصة لأفتح الموضوع للمناقشة بعد أن كنت مترددا فى فتحه .. وحققت ما أريد .. إن أنور السادات نفسه هو الذى سيقلب نظام الحكم وسيبيح تعدد الأحزاب ..

وقال رفعت فى استجداء :

– دعنى أشرح لك ماقلته و ..

وقاطعه برعى وهو يقوم واقفا وراء مكتبه :

– هذا يكفى .. مع السلامة ..

إنه يطرده ..

• • •

وخرج رفعت من لدى برعى وهو فى حضيض اليأس .. ويأسه يدفع فكره إلى اتجاه جديد .. سيترك مصر كلها برعى .. يجب أن يعترف بأنه لم يعد يستطيع أن يتحداه أو يواجهه أو يتقى شره .. وإذا كان برعى سيصبح الرجل الأوحد فى مصر فهو شخصيا لايستطيع أن يستمر فى أعماله كرجل أعمال عادى ليست له هذه القوة التى تعود عليها .. أنه لايدرى كيف يعمل دون الأستناد إلى قوة .. وقوة عظمى .. الا إذا قبل على نفسه بأن يقوم

بعمليات بسيطة صغيرة كباقى رجال الأعمال العاديين .. وهو لايمكن أن يحتمل أن يكون عاديا ..

ولكنه لم يترك مصر أو يهرب كما هرب برعى أيام زمان .. أنه لايستطيع أن يستغنى عن مصر واحساسه بفرحته بنفسه وبقوة شخصيته لايمكن أن يتمتع بها الا وهو يطل من شرفة بيته على النيل ويرى شهقة كل فرد فى مصر وهو يمر من أمامه فى الشارع .. ثم أن أسلوب الحكم قد تغير .. لم يعد هناك هذه الرهبة أو هذا الخوف الذى كان يقتلع قلب كل مصرى يحس أنه مهددا بغضب الحاكم .. لن يمسه أحد ولن يوجه اليه أى اتهام .. ان الحاكم وكل من حوله يعلمون أنه يختزن كثير من الأسرار التى تمسهم .. أسرار جمعها أيام عبدالناصر ولايزال محتفظا بها .. وهم لن يمسونه لا حبا فيه واحتراما له ولا حتى للفقه به ولكن خوفا من أن يرد عليهم باذاعة هذه الأسرار ..

وكل ما يجب أن يفعله فى هذا الطريق الجديد الذى طرأ على خاطره .. هو أن ينقل مركز أعماله من القاهرة إلى لندن .. انه لايزال محتفظا بقيمته وقوته لدى الانجليز .. ولايزالون محتفظين به كرجلهم الأول فى المنطقة ..

وبدأ يتخذ كثير من الاجراءات لتحويل مركز نشاطه ومركز رصيده إلى لندن .. ثم سافر إلى هناك .. ان الانجليز أوفياء فعلا .. انهم يستقبلونه كأنه رجل عبدالناصر وكأن عبدالناصر لايزال على

قيد الحياة يحكم مصر .. ووجد كل الأبواب مفتوحة .. ووجد العمليات تمر بسهولة .. حتى فى لندن ومع وجود كل هذه القوانين المحترمه هناك فرق كبير بين السهل والصعب .. بل أنه بدأ هناك بعملية كان يقدر أرباحها التى تعود اليه بخمسين ألفا من الجنيهات الاسترلينيه فاذا بها تصل إلى مائة الف .. وكأنهم فى لندن يدفعون له ثمن كل كلمة ينطق بها أمامهم ..

وقد بدأ يتردد على لندن كثيرا ولكنه لم يكن يستطيع الاقامة فيها الا أسبوعا أو أسبوعين وان كان قد أضطر مرة أن يقيم ثلاثة شهور تحت ضغط ومطالب العمل .. وكان يعود بشوق إلى مصر .. وإلى بيته المؤثث على الطراز الانجليزى .. أنه وهو فى مصر يحس أن لندن بين يديه وباريس وبون وكل بلاد الدنيا .. أن مصر هى فعلا أم الدنيا ..

وكان مركز أعماله فى لندن يلح عليه أن يقوم بعمليات فى البلاد العربية .. أنها السوق الأوقع والأسهل .. ولكن معظم البلاد العربية لاتزال ترفضه وتحتقره ولعلها تنتظر موته كما مات عبدالناصر .. ولكن .. هناك دولة عربية لايمكن أن ترفضه ليبيا .. لقد كان منذ قامت الثورة الليبية ونظام الحكم الجديد يعتبر كأنه الناطق باسمها أمام جمال عبدالناصر .. بل أنهم كانوا يعتبرونه كأنه هو شخصيا عبدالناصر .. أو كأنه شعار من شعارات عبدالناصر وليبيا لاتزال تعيش حياة عبدالناصر ولايمكن أن ترفضه أو تصده .. وقد أستقبل هناك فعلا كأنه شعار عبدالناصر وتمت هناك أكبر

عملية أقدم عليها .. عملية قبلت ليبيا تقديرها بستين مليون دولار ودخل جيبه منها ثلاثين مليونا .. ربحا صافيا .. لم يكن يحلم بكل هذا .. ان العباقرة يصلون دائما إلى أكثر مما يحلمون به ويقدرونه لأنفسهم ..

وقد أستمر تعامله مع ليبيا وامتد إلى بلاد عربية أخرى استطاع أن يصل اليها .. لم يكن جمع الملايين هو الذى يدفعه إلى كل هذا التوقع .. ولكنها لذة العمل ولذة الاحساس بالقوة .. وكان يعود إلى مصر وهو يحس أنه أقوى .. أقوى حتى من الاحتياج إلى الحاكم .. وبدأ يقدر برعى محمود كأنه يحتقره .. ان برعى عبدالحاكم أما هو فقد أصبح فوق كل الحكام وأقوى .. وبلغ به الاحساس بالقوة إلى حد أنه بدأ يستهين بالحاكم نفسه .. وبدأ يتكلم كثيرا ضد هذا الحاكم ويسخفه ويحذر من كل خطوة يخطوها .. بل أنه بدأ يجمع حوله الثوار القدامى من الماركسيين ومن الذين كانوا متجاوبين ومسئولين أيام عبدالناصر .. وكان يحادثهم بصراحه كأنه يحرضهم على الثورة .. وفى الوقت نفسه يرسل المعلومات المطولة إلى الانجليز وهو يعلم أنها ستصل إلى الأمريكان .. معلومات يحاول أن يهد بها قوة الحاكم .. أنه ليس قويا فى بلده ولدى شعبه .. وهو لايدرى كيف يمكن أن تتحقق الثورة ولا كيف يمكن أن يتخلص من هذا الحاكم .. كل ما يدريه هو أنه يكرهه ولا يريده ..

• • •

وكان رفعت البيومى مستلقيا على الأريكة المريحة فى صالون بيته الفخم مستطردا فى ذكرياته وفى يده كأس البرمنت من عصير النعناع وبين أصبعه سيجار مونت كريستو الفخم عندما دخل اليه « البتلر » كبير الخدم يحمل عدة التليفون .. أن لندن تطلبه .. وأخذ رفعت سماعة التليفون واستمع قليلا ثم قال فى صوت حاسم :

— لا .. لا .. حول من الرصيد خمسين مليون استرلينى ولاتهمك الأوراق ..

ثم ألقى سماعة التليفون وهو يلوى شفتيه امتعاضا ..

أنه لم يتعود أبدا على الأوراق لاتمام عملياته يكفى الاتصالات ..

وبعد قليل سمع أجراس الباب الرئيسى للشقة ترن .. وقبل أن يدخل البتلر ليبلغه بمن القادم ، فوجىء باثنين من ضباط البوليس يدخلون اليه وحوله أربعة من الرجال فى زى مدنى لاشك أنهم من رجال المخابرات وخلفهم البتلر يتبعهم فى هدوء .. وقام رفعت واقفا منطورا بعد أن ألقى الكأس والسيجار وهو ينظر اليهم فى دهشه :

وقال أحد الضباط فى أدب :

— هل تسمح سيادتك بأن تصحبنا ..

وقال رفعت وهو يبذل كل طاقته ليتماسك :

— هل أمر بالقبض على .. هل أصحبكم إلى السجن ؟

وقال الضابط مبتسما فى أدب :

— ربما كانت هناك مجرد أسئلة ؟

وقال رفعت وهو يحاول أن يخفى ارتعاشته :

— كن صريحا معى .. ليس الوقت مناسبا لتوجيه أسئلة هل أحمل معى حقيبة لملابس ؟

وقال الضابط من خلال ابتسامته :

— يستحسن من باب الاحتياط ..

وقال رفعت وعيناه تبرقان بريق الأمل والخوف :

— هل تسمح لى بأن أتحدث فى التليفون ..

وقال الضابط فى أدب :

— تفضل ..

وأمسك رفعت بالتليفون وأدار رقما ويده ترتعش .. أنه يطلب عبدالله مجيب .. أنه أقرب المقربين إلى الحاكم .. وكان قد استطاع أن يفتعل صداقة شخصية معه وأدخله شريكا معه فى إحدى العمليات التى تم فى لندن .. كان يعتمد عليه فى جمع كثير من المعلومات وأيضاً فى تأكيد الاطمئنان على نفسه .. ولكن عبدالله مجيب لم يرد عليه فى التليفون .. رد الخادم معتذرا بأنه ليس موجودا .. كيف لايكون موجودا والساعة بلغت الواحدة بعد منتصف الليل .. لعله كان يعلم بخبر القبض عليه ويهرب منه .. وابتسم ابتسامة مرة .. إنه لايستطيع أن يلومه .. انه هو نفسه كان يهرب من مواجهة عائلات أصدقائه الذين يعتقلون وكان يؤمن أن ليس من مصلحته أن يعارض قرارا يتخذه الرئيس مادام قد أتخذه ..

والتفت إلى الضابط المؤدب المهذب قائلا :

هل أستطيع أن أضع ثيابى وأعد حقيبتى ..

وقال الضابط بسرعة :

– تفضل سيادتك ..

وقام إلى داخل البيت ولاحظ أن الضابط الآخر يتبعه ومعه أثنين من رجاله .. لقد اتجهوا ورابطوا أمام باب المطبخ خوفا من أن يهرب منهم ..

ودخل غرفة النوم وزوجته آمال لاتزال نائمة .. لقد تعودت منذ أيام أن تنام وتتركه وحده ساهرا مع ذكرياته . وأمسك بآلة التليفون وأعاد طلب عبدالله مجيب وقال للخادم عندما رد عليه :

– اسأل سيدك إذا كان عاد إلى البيت أو لم يعد ..

وقال الخادم فى أدب :

– لحظة واحدة ..

ثم عاد بسرعة وقال فى التليفون :

– لم يعد سعادة البيه بعد ..

والقى سماعة التليفون وبين شفتيه ابتسامة تقطر بالمرارة .. لقد أعاد الاتصال به كأنه يحاول أن يثبت عليه تهربه منه ولكنه فى الواقع كان متشبثا بالأمل .. أنه أقوى من يعرفهم ويمكن أن يعتمد عليه فى مثل هذه المصيبة ..

وكانت زوجته آمال قد بدأت تستيقظ على سماع صوته وقال لها وقد بدأ يبدل ملابسه :

– أعدى لى حقيبة ملابس كاملة ..

وقالت فى دهشة :

– لماذا ؟

وقال من خلال ابتسامة ساخرة :

– سأبيت الليلة خارج البيت ..

وقفزت آمال من فوق الفراش قائلة :

– ماذا تقصد ؟

وبدأ يقول لها ما يجرى فى كلمات مختصرة وهى تردد .. لايمكن .. مستحيل .. مستحيل .. ثم وضعت على كتفيها الروب دى شامبر وهمت أن تخرج اليهم ولكنه أمسك بها قائلا فى هدوء :

– لاتخرجى اليهم .. أعدى الحقيبة ..

واستسلمت وهى لاتكف عن الكلام وقد بدأت الدموع تطل من عينيها .. بينما هو يبدل ملابسه .. لقد اختار احدى البدل المتواضعة التى تعود أن يلبسها أمام أصدقاؤه من الطبقة العادية .. واختار رباط عنق قديم ليس فيه هذه اللمعة والفخامة التى أصبح يختار بها أربطة العنق .. ثم بدأ يراجع ما تضعه زوجته فى الحقيبة .. ورفع منها عدة التواليت الفخمة التى تعود أن يصحبها فى السفريات ووضع بدلا منها مجرد مشط وعدة حلاقة متناثرة .. كما ألقى بالثياب الفخمة التى وضعتها زوجته ووضع بدلا منها ثياب متواضعة .. وكان حريصا على مراجعة كل أنواع الأدوية التى

يعتمد عليها فى الاحتفاظ بصحته .. كل ذلك وهو يلقى على زوجته تعليمات بما يجب أن تفعله أثناء غيبته .. بمن تتصل وكيف تتصل .. انها المرة الأولى التى يدخل فيها السجن ولكنه يستطيع أن يتصور ببساطة حياة المساجين ومتطلباتهم .. ان كثير من أصدقائه كانوا قد دخلوا السجن وخرجوا يحكون له .. ولايدرى ماذا سيكون نصيبه من كل ما سمعه .. هل يعذبونه ..

وخرج إلى رجال البوليس وزوجته وراءه تصيح فيهم من خلال دموعها .. هل تعلمون من تقبضون عليه .. قولوا لأسيادكم الذين يصدرون اليكم الأوامر انهم مجانين ..

ورفعت ينظر اليها فى لوم ورجاء ويحاول أن يسكتها .. ثم تقع عيناه على رئيس الخدم وهو واقف وراءهم يحمل لهم الحقيبة .. وهو هادىء بارد ولاينطق بكلمة .. وبدأ الشك يملأ فكره .. هل هو منهم .. لقد مضى عليه فى خدمته ثلاثة سنوات دون أن يبدو عليه أو منه أى شىء .. ولكن من يدرى .. ان المخابرات تضع فى كل بيت شخصية مهمة خادم أمين ..

وترددت خطواته كأنه يهم أن يعود إلى الداخل .. كان قد قرر ألا يوقظ أولاده ليودعهم .. ولكنه يحس الآن أنه يريد أن يراهم .. يملأ عينيه بهم قبل أن يتركهم ليغيب عنهم .. ولكن لا .. انه لايحتمل أن يروه مقبوضا عليه ..

وخرج من البيت مقبوضا عليه ..

وأحس كأنه يخرج من الحياة ..

• • •

وقد أستقبل رفعت البيومى فى السجن باحترام كبير كأنه أحد كبار الزوار .. واطمأن بعد ساعات بأنه ليس هناك باساءة معاملته .. وهو يعرف من أين تصدر هذه التعليمات .. أنها تصدر من الرئاسة نفسها .. ان كل ضربة كانت تقع على برعى محمود كانت تصدر بها الأوامر من الرئاسة أيام جمال عبدالناصر .. ولكن يبدو أن الرئاسة لن تأمر باساءة معاملته ..

وقد وضعوه فى زنزانة مع سجين واحد محترم .. انه الدكتور محمد علوان الأستاذ بالجامعة .. ورغم أنه لايطيق أن يشاركه غريب فى غرفة واحدة حتى لو كانت زنزانة .. ولكن ليحمد الله على أنه غريب محترم .. وكان كل المساجين فى هذا السجن من المقبوض عليهم سياسيا .. ورغم أن هذا يرفع من مستوى السجن ويؤلف بين المساجين الا أنه لايريد أن ينسب إلى هؤلاء السياسيين ويعتبر كأنه واحد منهم .. أنه شىء آخر .. شىء أعلى وأهم وأخطر .. ورغم أن أبواب الزنازين كانت مفتوحه والمساجين أحرار فى اختلاطهم بعضهم ببعض إلى أن تقفل الأبواب فى الساعة السادسة الا أنه كان حريصا متعززا فى الاختلاط ببقية المساجين السياسيين .. حتى أن الجميع كانت تصلهم الأطعمة من بيوتهم

فيمدونها على بطانية تفرش على الأرض .. كل منهم يضع ماوصله بجانب ماوصل الآخر حتى يشتركوا كلهم فى طعام واحد وكأنها وليمة شعبية .. وكان هو يصل اليه الطعام من البيت وكانت زوجته تبالغ فى اختيار الأنواع وتحديد الكميات .. بل انها أرسلت له يوما طبقا من « السمون فيميه » .. السمك المحبب اليه .. وثلاثة علب من الكافيار .. ولم يكن يضع مايصله أبدا بجانب مايصل الآخرين .. يشترك فى الوليمة الشعبية .. بل كان يحتفظ بما يصله فى زنزانته ويدعو اليه واحد أو أثنين ممن يختارهم من المساجين .. احتفاظا بهيبته وعلو شأنه .. وربما لأنه يتقزز من تناول الطعام مع الآخرين.. أنه لايستطيع أن ينزل إلى نفس المستوى الذى ولد فيه .. مستوى كفر البطيخ ..

وكان أول ماشغله يوم دخل السجن هو أن يبحث عن القوة المسيطرة على شئون المساجين حتى يكسبها ويعتمد عليها .. انها قوة مأمور السجن .. وقد استطاع أن يتقرب إلى المأمور ويكسبه .. حتى أنه أصبح يترك كل المساجين ملتفين حول بعضهم البعض فى فناء السجن ويجلس طول اليوم مع مأمور السجن فى مكتبه .. والمأمور سعيدا متباهيا بأن يجالس شخصية هامة لها تاريخها كشخصية رفعت البيومى .. بل أن زوجته آمال بالاتصال بها أصبحت صديقة لزوجة المأمور .. صداقة لم تكلفها الا الهدايا السخية .. وكان أول ما حققه له المأمور هو أن نقل من زنزانته الدكتور محمد علوان .. أنه شخص محترم ولكنه مزعج لايكف عن الكلام ومريض لايكف

عن الشكوى .. وأصبح رفعت يقيم وحده فى الزنزانة ولايمكن أن يعتبر ذلك حبسا انفراديا يعذب به المساجين مادام باب الزنزانه يبقى مفتوحا طوال النهار .. بل أن المأمور ترك له الباب مفتوحا أثناء الليل حتى يخفف عن نفسه إذا أصابه الأرق .. وحدث تساهل عجيب فى اجراء التفتيش الذى تنص عليه لوائح السجن على كل ما ترسله له زوجته .. لقد كانت ترسل له السيجار .. ويشرب البرمنت الذى يدمنه رغم أنه من أنواع الخمور .. بل أرسلت له عدة الحلاقة التى تعودها رغم أن الأمواس ممنوع دخولها فى كل السجون .. لم تعد هناك ممنوعات لكل مايريده ..

لقد أصبحت زوجته آمال هى المسئولة الوحيدة عنه سواء خارج أو داخل السجن .. كأنه لم يعد له أحد غيرها فى كل الدنيا ..

وقد استطاعت أن تزوره فى السجن قبل أن تتاح الزيارة لأهالى بقية المساجين .. وقالت له ما حدث بعد اعتقاله .. ان الوحيد الذى أعلن غضبه هو السفير الانجليزى .. وقد وصل إلى حد اعلان هذا الغضب والتصريح بلوم الحكومة وهو يبذل جهدا مستمرا من خلال اتصالاته حتى يفرج عنه ..

أما باقى من اتصلت بهم آمال من كبار المسئولين وكبار الشخصيات فرغم كل ما سمعته منهم من كلمات الرثاء كأنهم يعزونها فى زوجها فان أحدا منهم لم يتحرك للافراج عنه .. بل لم يكن أحد

يفكر فى الاتصال بها الا بعض موظفى مكاتبه وشركاته يضعون أنفسهم فى خدمتها وكل منهم يتمنى ألا تكلفه بشىء ..

وبدأ رفعت يضيق بالسجن .. .. وبدأ اليأس يزحف عليه ويحطم أعصابه .. أنه سجن لنفس الأسباب التى سجن من أجلها برعى محمود أيام عبدالناصر .. ولكن برعى لم يبق فى السجن الا عشرة أيام ثم أفرج عنه وتركوه يهرب .. وقد مضى عليه الآن أكثر من شهر دون أن يحس بأن حركة تثير الأمل .. وقد استدعوه يوما واحدا إلى مكاتب المخابرات للتحقيق معه .. أنهم يوجهون اليه نفس الأسئلة التى كان يعلم أنها وجهت إلى برعى محمود عندما حقق معه .. ولعله أجاب بنفس الأجوبة التى كان برعى قد أجاب بها .. بل أنه فوجىء بأن أسمعوه تسجيلات لمعظم أحاديثه التى كانت تجرى فى مكتبه وفى بيته .. وقد كان أحيانا يخطر على باله بأنه محاط بآلات التسجيل حتى وهو فى عز مجده أيام عبدالناصر ولكنه كان من الغرور وربما من الغباء أنه لم يحاول أبدا أن يبحث عن هذه الآلات ليرفعها من مكانها أو يفسدها .. أن برعى محمود كان فى مثل غباءه ولم يحاول أن يبحث عن آلات التسجيل التى كانت تحاصره ..

ان كل أمله كما يفهم من اتصالات زوجته ورغم مضى كل هذه الأيام ينحصر فى السفير البريطانى .. ولكن السفير لن يستطيع أن يصل إلى شىء الا إذا اتصلت لندن بواشنطن وتدخلت واشنطن

للافراج عنه كما أفرجت عن برعى محمود .. أنه صديق حليفتها بريطانيا ورجلها الوحيد .. وقد استطاعت زوجته باصرارها أن تتصل ببرعى كأنها اتصلت بأمريكا .. ولكن برعى قال كلاما عائما بارعا وقال لها أنه واثق من أن التحقيق سيبرئه .. أى تحقيق .. أنه يعلم أن أى تحقيق لايساوى أى شىء .. وهو لايستطيع أن يأمل شيئا من برعى .. أنه ينتقم منه .. رغم أنه كان قد وافق على أن تتصل به زوجته عندما استشارته خلال زيارتها له فى السجن ..

لعل برعى كان أذكى منه عندما هرب من مصر عقب الافراج عنه .. وهو كان يجب أن يهرب قبل القبض عليه وبمجرد اختفاء عبدالناصر ..

ولكن لنفرض أنه أفرج عنه فهل يهرب بعدها .. هل يهرب هو وزوجته وأولاده ويقيم فى لندن التى نقل اليها مركز أعماله ولايزال يمكنه أن يعيش فيها مستكملا كل شخصيته التى تعب فى بنائها منذ أيام كفر البطيخ ..

أنه لايدرى ماسيكون عليه مصيره ..

ان كل ما يدريه اليوم أنه لايزال فى السجن ..

(تمت)